
قاهر العالم
تيمور لنك
السيد فرج



وكانت جيوشه تدك
معاقل آسيا فتهتز
عروش أوربا، ويتلفت
ملوكها مذعورين ..
فقد كان يريد أن
يحكم الدنيا بأسرها ! ؟

الثمن ٢٠ ص

السيد فرج

قاهر العالم
«تيمورلنك»

الطبعة الثانية : نوفمبر سنة ١٩٥٧

الناشر : دار الفكر العربى . القاهرة

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير ـ القاهرة
ت ٧٩٠١٧



السيف الذى أضاء العالم . . ! ؟

[. . . وكانت جيوشه تدك معاقل آسيا فتهتز
عروش أوربا ، ويتلفت ملوكها مذعورين . .
فقد كان يريد أن يحكم الدنيا بأسرها ! ؟]

قاهر العالم . . أم . . مدمر العامر ! ؟

تقــديم الطبعة الثانية

للمربى الجليل الأستاذ السيد محمد يوسف

عضو مجلس الأمة

لعل خير تسمية تنطبق على تيمور لنك هى : «مدمر العامر» لا «قاهر العالم» فإن الذين انحنوا لعاصفته ، وسكنوا لإعصاره ، مالبثوا أن أقاموا رءوسهم ؛ فألفوه هباء مضى به الهواء ، يوم نزل بهالفناء . فما له من دولة ، ولا صولة . وإنه لفشل أعظم الفشل لمخلوق ألا تذكر له غير السيئات ، حين يزول عنه النفوذ والسلطان . إذ أن للبطولات التاريخيــة مقاييس لم يحز تيمورلنك من مجموعها درجة التمجيد أو التخليد ، ومعلوم أن قهر الخصوم فى المعارك ليس معناه النصر العزيز ، والفتح المبين . فإن فاتكا غشوما يدمر المقدسات ، وينتهك الأعراض والحرمات ، ويتسلى ـ وهو المسلم ـ فيصنع من جماجم البشر أهرامات ، غير جدير بأن يحضى به التسجيل بين الخالدين.

نقول هذا ؛ لأنه مسلم لم يتأثر بتقاليد أسلافه الخالدين ، أمثال أبى عبيدة ، وخالد بن الوليد ، وطارق بن زياد ، وعقبة بن نافع .

ونقول هــذا ؛ لأنه جندى ، وللجندية تقاليدها التى لاتنزل بمستوى السيف والقوة ، إلى حضيض الإسفاف والهجمية .

وحسب مصر فخارا أن تقف فى أن تقف فى وجه «قاهر العالم» فترده عن حماها ، وإنه لموقف جدير بأن يبرزه المؤرخون لشباب هذا الوطن حتى يعرفوا أمجاده وبطولاته .

ولن يشفع « لتيمور لنك » ماشاد من مدينة سمر قند ، وما أسس من مسجده بهــا ، فإنه بنيان أسس على غير تقوى من الله ، فانهار به فى نار

جهنم ، ولن يمجَّد تيمورلنك بأنه عصامى ؛ فالعصامية التى يُباهَى بها ، هى العصامية البانية المهتدية بالمُثل العليا ، والقِيمَ الشريفة .

ولقد استطاع المؤلف أن يحدّثنا عن معاركه ؛ بقلم الأديب ، وروح المحارب الذى يدرك تقاليد الجندية الأصيلة ، فكان موفقا فى عرضه ، وتحليله ، ونقده ، كما قال فى ختام الكتاب :

« إن خوض عشرات المعارك ، وفتح البلدان ؛ لايجعل للقائد قيمة ، مادام قد تجاوز الحدود ، وهبط عن مستوى الجنود ، ونزل إلى حضيض القتلة وقطاع الطرق ؛ وناهبي الأعراض ، فإذا ماأردنا تمجيد تيمور لنك ، فإننا نفعل ذلك فى حدود أعماله العسكرية ، أى فى نطاق العمليات الحربية ، فقد كان ابن بجدتها ، وفارس حلبتها .

ولن يغفر ذلك كله لتيمور لنك ما فعل ، فقد كان ظاهرة شاذة ، وشخصية على غير نظام وقياس ، ولا يستطيع أن يقف فى صف القادة الأطهار البواسل ، فهو لم يعتمد على البراعة الحربية ، وإنما أراد القتال بروح السفاكين الهمج .

ولهذا فإن كل ما فعله تيمورلنك ـ طيلة حياته ـ قد انتهى بانتهاء حياته ، ودالت دولة التتار ، لأنها قامت على الأطماع الهوجاء ، ولم تقم على دعائم الحق والنظام ، والعدالة ، والحرية » .

***

ولا ريب أن المؤلف كان قوى التعبير والتصوير ، صادق الحكم والتقدير ، بما له من قدرة فنية ، وخبرة عسكرية . فجاء كتابه ـ على إيجازه ـ موضحا لفكرته ، معبرا عن وجهته .

٢٢/٥/٧٧

الإهداء

إلى إخوتنا فى الجندية والوطن العربى الكبير

رجال الجيش السورى الباسل

الذين شعارهم :

بيض صنائعنا سود وقائعنا

خضر مرابعنا حمر مواضينا

السيد فرج



تیمور لنك

قبل خمسمائة وسبعين عاماً من أيامنا هذه ، حاول رجل أعرج متواضع النشأة أن يجعل من نفسه حاكما على العالم بأسره ، وقد حالفه التوفيق فى كل خطوة همّ بها ، فلم يعرف الهزيمة قط . . ولم يحظ بمثل سلطانه أحد .

وهناك على قبر فى مدينة سمرقند - عروس العواصم فى القرن الرابع عشر - نقشت العبارة الآتية :

[هنا المكان الذى استراح فيه العاهل المعظم والسلطان الأكبر ، والجندى القوى المهيب . . السيد تيمور ، قاهر العالم] .

* * *

بدأ على رقعة أرض صغيرة ، فى رفقة قطيع من الماشية ، فى وسط آسيا ! فلم يكن ابن ملك كما كان الإسكندر المقدونى ، ولا خريج أكاديمية حربية كنابليون ، ولا كان وريث عصبية قبلية مثـل جنكيزخان . . كما أنه لم يجد فى بلاده شعباً موحداً كالشعب المقدونى أو الشعب الفرنسى أو شعب المغول ! وإنما هو الذى جمع الجيش ، ووحّد الشعب ، وبسط نفوذه على آسيا وأوربا ، وهزم جيوش العالم . . .

كان يدمر المدن ثم يعيد بناءها وفق هندسته الخاصة ، ويجعل

القوافل تمر من أوربا إلى آسيا ، ومن آسيـا إلى أوربا حسب النظم التجارية التى وضعها بنفسه . ويجمع فى يده اقتصاديات جميع البلدان فيرسم خطوطها الأساسية ويضع ميزانياتها العامة . . .

كان ينتصر بالرعب ، ويدمر قلوب أعدائه من الخوف قبل اللقاء . . . هدم المدن وحصـد الأرواح وأقام أهرامات من جماجم خصومه . . واندفع لغزو آسيا وأوربا كالريح السوداء ، وكان التتار الذين يقودهم يقفزون وراء الغذاء والدماء والنساء ! ؟ .

وقد لقبه أعداؤه بالذئب الأغبر آكل الأرض ، بينما كان أنصاره يطلقون عليه : الأسد الغازى .

وعرفت امبراطوريته باسم « إمبراطورية تيمور لنك » فقد نمت على يديه ، وانتهت بنهايته .



عشرات المؤلفات . . . من جميع اللغات

كتب عن تيمور كثيرون من معاصريه ، وممن جاءوا بعده من مختلف البلدان ، شرقا وغربا ، وما زالت المطابع الحديثة ـ رغم مرور نيف وخمسة قرون ـ تصدر طبعات جديدة أنيقة ، فى كل لغة ! . . ويضع كثيرون من المعقبين الحربيين تيمور لنك فى القائمة الأولى بين عباقرة القادة فى جميع الأزمان . . بينما يتحيز بعضهم فيعتبره أعظم قائد فى التاريخ كله . . بغير استثناء ! .

وقد ظهرت كتب عربية قديمة فى سيرة تيمور وأخبار التتار وأشهرها كتاب « ظفر نامة » وهو تسجيل لأعمال تيمور وتاريخ حكمه كتبها « نظام الشمس » العالم الفارسى ، وكذلك ظهر كتاب بنفس الاسم وضعه « شريف الدين » الذى رافق تيمور فى كثير من رحلاته وغزواته ، وكتاب « عجائب المقدور » لابن عرب شاه ، كذلك حظيت المكتبة الغربية بعشرات المؤلفات عن تيمور لمؤلفين روس وإيرانيين ، وهنود وصين . ومن كبار المؤرخين الذين خصوه بعنايتهم كلافيو الإسبانى ، وبروندنيو الإيطالى وفور يسار الفرنسى ، وشتيلبرجر الألمانى ، وملتون الإنجليزى الذى اتخذ منه العلامات الغالبة على شيطانه فى كتابه الأشهر « الفردوس المفقود » .

وامتازت المؤلفات التى وضعت عن تيمور بسعة الذيوع وسرعة

الإنتشار وقد طبع بعضها فى عدة لغات عدة طبعات ، ومن أشهرها كتاب هارولد لامب « تيمور لان غازى العالم » الذى طبع اثنتى عشر طبعة بين عامى ١٩٢٨ ، ١٩٥٥ .

وليس بغريب أن يكون تيمور موضع عناية المؤرخين والمراقبين الحر بيين إلى أيامنا هذه . . فقد كان من ناحية أعظم حاكم فى القرن الرابع عشر ، ومن ناحية أخرى أحد عظماء القادة فى جميع العصور . . وكان ملوك أوربا يكتبون إليه بعنوان « تمرلان العظيم[١] عاهل التتار » ، وكان شارل السادس ملك فرنسا يصفه « بأنه أعظم الغزاة وأصلح الأمراء » . . أما تيمور نفسه فكان يوقع خطاباته بقوله « أنا عبد الله . . تيمور » .

---

(١) Tamerlane

إمبراطورية تيمورلنك

لقد كان حلم تيمورلنك الذى سعى لتحقيقه هو السيطرة على العالم ، وقد فعل ، فكان أعظم حاكم فى زمانه وسيد أكبر رقعة من المعمورة ، وقد سجل المؤرخون فتوحه وغزواته ، ومنهم من عاش فى مقر قيادته وشهد معاركه ورأى الممالك التى فتحها واطلع على خطابات ملوك أوربا إليه ، وكان من هؤلاء النبيل الإسبانى جونزال جلافيو فكتب يقول :

(لقد غزا تمرلان أمير سمرقند كل أراضى المغول والهند ثم فتح بلاد الشمس وأخضع خوارزم و إيران وميديا وبلاد الحرير وأرض الممرات كما غزا أرمنيا وأرض روم و بلاد الكرد ، ودمر دمشق و بابليون و بغداد ، وكسب معارك عديدة دون أن ينهزم فى معركة واحدة ، ولما التقى بالترك هزم قائدهم الأشهر بايزيد وأخذه أسيراً . .) .

وقد رأى جلافيو فى بلاط تيمور بسمرقند عشرات الأميرات من الأسر المالكة ، من أكثر بلاد العالم ، والتقى هناك بسفراء الصين ومصر و بلدان أوربا .

ويعتبر المؤرخون أن تيمورلنك هو « آخر الغزاة العظام »

فقـد أنشأ امبراطورية عظمى من تفـكيره وتدبيره وحـده ، ولم يخض معركة إلا كسبها ، ولم يقدم على مشروع إلا كان النجاح حليفه ، فهو لم يعرف الهزيمة قط ! .

وكتب عنه سير برسى سيكس يقول :

« لم يسبق لفاتح أسيوى فى التاريخ كله أن أعد مثل هذه الجيوش الهائلة ومن ثم لا يصل لمدارج شهرته وتفوقه أحد . . وإن فعاله لترتفع إلى مافوق مستوى البشر » .



هل كان أعظم من جنكيز خان (١)

لقد أطلق المؤرخون على جنكيز خان وتيمور لنك « الفاتحان الكبيران » وكتب عنهما الكثيرون على محمل المقارنة ، فقد كان كل منهما عبقرية عسكرية وكفاية إدارية منقطعة النظير وإذا كان كثرة من المؤرخين يشيدون بحملات قيصر أو غزوات هانيبال ، أو استراتيجية نابليون أو براعة بسمارك فليس من شك فى أن تيمور لنك وجنكيز خان والإسكندر المقدونى كانوا سادة الحرب فى التاريخ كله .

وقد يكون هناك من قاد جيوشاً كبرى أو انتصر فى معارك عالمية ، ولكن اتساع ساحات القتال ومدى أثر الغزوات لم يكن أبداً مثلما كان فى عهد هؤلاء الثلاثة العظام . وهما مميزان عن الإسكندر المقدونى الذى ورث عن أبيه فيلب عرشه وجيشه

---

(١) ولد جنكيز خان عام ١١٦٢ — واسمه الأصلى تيموشين — وأبوه من القبائل المغولية الضاربة فى صحراء الجوبى الممتدة شمالى الصين وقيل إنه ولد وفى يده قطعة من الدم — علامة على المستقبل الدموي الرهيب — وبدأ حياته الدموية بقتل أخيه لأنه اغتصب منه سمكة وشنق ابن عمه بخيط رفيع من الحرير . . ! وكان يلقى بخصومه فى الزيت المغلى ، وأغار على القبائل فقتل وسبى وغنم ؛ وغزا المدن فخرقها ولم يترك زرعا ولا ضرعا ، وقاد جيوشاً كالوحوش الضارية ، لم يعهد لها مثيل فى القوة والبأس ، وجعل لنفسه امبراطورية عظمى واسماً خالداً بين عباقرة التاريخ حتى قال نابليون بونابرت : لم يوفقنى الله مثلما وفق جنكيز خان .

وشعبه .. أما جنكيز، أو تيمور فلم يرث أحدهما عرشاً ولا جيشاً ولا شعباً.
و إنما صنع كل منهما بنفسه الجيش والشعب والسلطان .

أما نابليون فقد انتهى من حروبه الكثيرة إلى الأسر بعد خسرانه معركة ووترلو وأما بسمارك فقد أغمض عينيه عن التوسع وأوقف عجلة الحرب اكتفاء بألمانيا .

فإذا أخرجنا هؤلاء العباقرة قيصر وهانيبال والإسكندر ونابليون و بسمارك من معترك المقارنة ، بقى أمامنا القائدان الأسيويان : تيمورلنك وجنكيز خان .

لقد جاء جنكيز إلى الوجود قبل منافسه فى الشهرة التاريخية . . وفى رأى بعض المؤرخين أن جنكيز لم يكن يتولى القيادة بنفسه فى أغلب معاركه و إنما كان يكتفى بوضع الخطط وتلقى الأنباء و إصدار الأوامر من مقر قيادته بعيداً عن معترك الحرب ، بينما كان تيمور يقود جيشه بنفسه و يتحمل تبعات القتال كله .

وكان لجنكيز وزراء من الصين وقادة عن عباقرة : سابوتى ، شيبى نويون ، بايان ، وموهولى . . قادوا المعارك وأحرزوا النصر وثبتوا أقدام المغول فى كل ميدان .

واستطاع هؤلاء المعاونون المقتدرون أن يحملوا العبء وأن يثبتوا الامبراطورية فعاشت بعد موت العاهل المغولى . . أما رجال تيمور فلم يكونوا من المتفوقين أو ذوى المقدرة ولهذا فقد انتهت امبراطوريته بنهايته .

وكان مغول القرن الثالث عشر ذوى طبيعة حادة و إقدام على الحرب منقطع النظير . . أما تتار القرن الرابع عشر فكانوا أقل فتوة وحمية ، وكانوا يفقدون نصف قوتهم فى غياب تيمور .

كذلك كان المغول يحاربون فى عدة جبهات وتذهب سراياهم تقاتل فى ممالك بعيدة تحت إمرة هذا القائد أو ذاك . . أما التتار فلم يعرفوا الحرب إلا فى جبهة واحدة ، ومعركة بعد معركة .

وكان جنكيزخان يضع مع قواده خطة المعركة وتظل دراستها معهم عدة أيام وربما أسابيع يقلّبون احتمالاتها و يقدرون أحداثها حتى تنضج الخطة تماماً وتتضح أحسن الحلول ، وحينذاك كان جنكيز يوجه خير قواته وقواده إلى المعركة المناسبة فيضرب المركز الرئيسى بأشد ماعرف فى الحروب من عنف و بأس حتى يقضى القضاء التام على خصومه و يدك قلاعهم ومدنهم و يجعلها أثراً بعد عين . . أما التتار فكانوا أقل مقدرة وحماسة ، و بهذا كان تيمور هو مصدر القوة العظمى .

ولم يكن جنكيز يقدم على معركة لا يطمئن تماماً للفوز فيها فقد كانت حاسته الاستراتيجية متنبهة للغاية ، وكان بارعاً فى تفادى العقبات والمشكلات . . أما تيمور فكان يقبل المعركة كما هى و يواجه العقبات و يتغلب عليها . . كان مثل نابليون يسير على تعبئة كاملة واستعداد لكافة الطوارىء والمفاجآت . . وكان يعتمد على أنه

يستطيع أن يفعل الشيء المناسب فى الوقت المناسب ، ويكسب المعركة دائماً .

ومهما يكن من أمر هـذه المقارنات والمفاضلات التى يعتز بها بعض الهواة أو المؤرخين فيقدمون قائداً على آخر ، فإن الفائدة المؤكدة إنما تكون بمراجعة ظروف كل قائد ومعاينة صفاته ومزاياه ، وما كان يمكن أن يعمله لو كان فى مثل ظروف الآخر ، وطبيعى أن مثل هذا الحيز لايتسع للإفاضة فى التنقيب عن أعظم القادة ، فالموضوع الأصيل هو التحدث عن تيمور لنك . . فلنذهب إليه !.

السيف الذى أضاء العالم

تبدأ سيرة تيمور فى عام ١٣٣٦ ، بالمدينة الخضراء جنوبى سمرقند ، فى بلاد ماوراء النهر ـ من أملاك ورثة جنكيز خان — وقد أهمل الأحفاد فى العناية بملكهم وانصرفوا إلى ملاذهم وقنعوا بما هم من رفاهية فاضمحل نفوذهم وتركوا للولاة المحليين السلطة الحقيقية إكتفاء بما كان يرفع إليهم من أموال وخيرات .

وقد وصفت بلاد ماوراء النهر بأنها « أخصب بلاد الله وأكثرها خيراً وفقهاً وعمارة ورغبة فى العلم واستقامة فى الدين ، وأشد بأساً وأغلظ رقاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدراً ، وأرغب فى الجماعات مع يسار وعفة ومعرف وضيافة وتعظيم لمن يفهم .. » .

وكانت الولاية « ترانسكانيا » يمر بها طريق التجارة الاسيوى من غرب آسيا إلى الصين يحكمها أمير أعور يدعى « كوزجان » كان حاكما شديد البأس فقد إحدى عينيه فى القتال ، وقد تمكن بخداعه وقوته أن يصير حاكما بأمره .

أما المدينة الخضراء ، فكانت أجمل وأزهى مدن الولاية وكان كبير شيوخها « تراجى » سيداً ورعاً منقطعاً للصلاة والعبادة زاهداً فى الدنيا ، وقد رأى ذات ليلة فيما يرى النائم أن عربياً مهيباً أعطاه

سيفاً ، فلما لوّح به فى الهواء أضاء الدنيا بأسرها .

فذهب الشيخ فى الفجر إلى أحد أولياء الله وقصّ عليه رؤياه ، فأنبأه بأن الله سيهبه غلاماً زكياً له مضاء السيف ، وأنه سيبهر العالم كله و يفتح القلوب للاسلام و ينقذ العالم من الهمجية والضلال .

وعندما وضعت زوجته طفلهما أخـذه إلى ولىّ الله فألفاه يقرأ القرآن الـكريم فاختار له اسم « تيمور » أى حديد ، وقد اشتهر فيما بعد باسم تيمور لنك[1] لما أصيب بسهم فى قدمه خلال إحدى معاركه فلم يعد يسير إلا عرجا .

واشتهر عند الفرنجة ـ وفى مراجعهم ـ باسم Tamarlane تمرلين .

---

(١) Timur-i-Lang

الأب .. والابن

نشأ تيمور فى بيت صغير خشبى تختلط فيه الماشية بالسكان . وكان أبوه رجلا متديناً يقضى وقته فى تلاوة القرآن . وقد عزف عن الدنيا وآثر العبادة وكان لايفتأ يحدث ابنه عن الله والإسلام والدنيا والوطن .. فأحاطه بالكثير .

قال له والده وهو يحدثه عن بلاده « لقد شرع جنكيزخان فى السيطرة على العالم فبلغ مراده ثم توفاه الله ، فانقسمت امبراطوريته إلى أربع مناطق بين أولاده الثلاثة وأولاد ابنه الأكبر ـ الذى مات قبله ـ كما يحدث فى التركات الخاصة ! فكانت بلادنا من نصيب ابنه شاجتاى الذى أهمل أولاده فى ملكهم وانصرفوا للهوهم ومجونهم تاركين والياً من قبلهم يدبر الأمر ويرفع إليهم الأموال والثمرات » .

وقال يحدثه عن دين الله « إننى يا إبنى أعبد الله وأصلى على رسوله وأحترم الأولياء الصالحين والدراويش ، وعليك يابنى أن تتمسك بمبادىء الإسلام الخمس : الشهادة ـ الصلاة ـ الصوم ـ الزكاة ـ الحج » .

ثم حدثه عن الدنيا فقال له : إنها دنيا براقة ظاهرها جميل وباطنها ردىء فهى أشبه بوعاء ذهبى مملوء بالحيات والعقارب !

ونشأ تيمور متأثراً ببساطة أبيه ونظراته فى الحياة ولكنه كان مطبوعاً بطابع عصره ومميزات شباب جيله : الفروسية والصيد والمباراة .. فكان يتلو كتاب الله و يرتاد الجوامع و يجلس إلى الأئمة يستمع إلى التفسير والحديث، وكان أيضاً يعتلى صهوة جواده فيسبق أقرانه و يذهب إلى الصيد فيبزّ رفقاءه و يشترك فى مباريات البولو أو الفروسية أو القتال فإذا هو سيد الحلبة ، وصاحب قصب السبق .

وكان قوى البنية بهى الطلعة طويل القامة عريض المنكبين كبير الرأس لامع العينين يصوبهما فى محدثه فيسيطر عليه بنظرته وصوته الخفيض العميق وحديثه الرتيب وثقته بنفسه ورزانته .

وكثيراً مارؤى تيمور فى حلقة الجامع يستمع إلى الشيخ ، وفى مجالس القوافل ينصت إلى نوادر التجار وأخبار القتال ، وكان — وهو فى سن السابعة عشرة — كثير الصمت مغرماً بالوحدة فيترك أصحابه إلى مكان قفر ، يسرح النظر فى الأفق البعيد و يرسل الفكر وراء المجهول .. كأنما كان يستطلع البلاد المجاورة والعالم الذى سمع عنه ، أو كان يستشف المستقبل الذى ينتظره .. أو يفكر فى الطريق الذى سوف يسلكه .

وهكذا ترى أن الإبن قد تأثر بالأب ، وقد تأثر بالبيئة ، وراح يصنع نفسه بنظراته الخاصة ومزاياه الموهوبة وأفكاره الخصوصية .. وشرع يذرع الطريق .. فقد عرف أن لكل إنسان طريقه !

استخلص تيمور عدداً من أصحابه ولداته بعـد اختيار وتمحيص فصـارت له فرقة من الفرسان الشجعان ذوى الإخلاص والحمية و بدأ يجوب معهم المدن والقفـار المجاورة واستطاع أن يقطع على صهوات الخيل ألف ميل فى الجبال والوهاد حتى وصل بعد أسبوعين إلى مضارب الأعراب حيث نزل فى ضيافتهم يستمع إلى أحاديثهم ومغـامراتهم وأخبار التجار ونوادر الترحال ، و يلعب معهم الشطرنج .

وفـكر القائد الصغير . . فى أمر كبير .

كان قد اختلف مع عمه حاجى برلاس زعيم القبيلة ، فهجر تيمور بلده ورحل إلى « سالى ساراى » وفـكر فى أن يذهب لمقابلة الحاكم رأساً ، وهو الأمير كزجان حاكم سمرقند .

وانتقى جوادين من خيرة الجياد واصطحب معه خادمه القـديم عبد الله .

ورحب الحاكم بالفارس الشـاب وأعجب بمنطقه وألمعيته ، ووضعه تحت التجربة . . وهنـاك سلطت عليه العيون والآذان ليعلموا مبلغ فروسيته وشجاعته و إخلاصه . . و بدأ هو يتطلع لتنظيمات الجيوش ووسائل التدريب وفنون الحـكم .

وحدث أن أغار بعض المرتزقة على الحدود وجمعوا بعض الجيـاد ليهربوا بها ، فرأى الحاكم فرصـة عملية لاختبار تيمور فاستدعاه وعهد إليه بالمهمة على رأس فرقة من الشبان الفرسان وسرعان ماانطلق تيمور واستمر نصف اليوم على صهوة جواده فى سرعة فائقة حتى لحق بالمغيرين فأحاط بهم واستولى على مغانمهم وعاد بها إلى أصحابها فـكافأه الحاكم وأهداه قوسه الخاصة وصندوق سهامه ، وقربه منه وأولاه اهتمامه .

وظفر تيمور من حليفه الـكبير كزجان بهديتين ثمينتين :

الأولى : زوجته الجميلة النبيلة الجـاى ختون أغا ، وقد اختارها له الحاكم بنفسه من ذوات قرباه .

الثانية : رتبة اليمبـاشى ، قائد الألف ، فأصبح تيمور قائداً بحق ! . . وبدأ يدرس القيادة عملياً وتحت إمرته المطلقة ألف جندى ! ودخل تيمور إلى ساحة القيادة تحت سمع التاريخ وبصره . وأدرك هو ذلك ، وعرف أنه فى طريق أهدافه العظمى .

ولهذا فإنه حين رزقه الله بغلام اختار له اسم « جهانجير » أى « مالك العالم » .

كان التتار فى القرن الرابع عشر لايعرفون الاستقرار ولا يطيقون الثبات تحت إمرة الحاكم ولهذا فقد استمرت المؤامرات والانقلابات ولم يكن يحول دون ذلك إلا ملك قوى مهيب يحسب رؤساء العشائر حسابه و يلتزمون فى ظله حدودهم . وقد كان طغلك خان العاهل المغولى هو الحاكم الحقيقى لبلاد ما وراء النهر وكان قد عهد لكاجان بالحكم وكان كاجان قو ياً وقديراً ولكن كانت لديه استهانة أتاحت لخصومه الفرصة ، وأخيراً كلفته حياته . فقد خرج يوماً إلى الصيد بغير حرس فوثب عليه اثنان من رؤساء العشائر فقتلاه رمياً بالسهام .

ولقد كان الطبيعى أن يتولى ابن جا كان[1] الحكم مكان والده ولكنه لم يطق العيش فى جوا المكائد والفتنة والأطماع فقد تكاثر الطامعون فى الحكم واستشف الفتى الخطر فآثر السلامة ونزح عن البلاد ، وعلى أثر ذلك ظهر فى سمرقند « حاجى برلاس » ، و« جالير » ، من رؤساء العشائر وأخذا معاً بزمام الأمور .

وقد كانت قاعدة الحكم فى ذلك الزمان أن اليد التى تقبض على

---

(١) روى أنه كان هناك عهد مبرم بين المغول والتترعلى أن تكون ولاية الملك لأحفاد جنكيزخان من المغول ، أما التتر فيعين منهم الحكام أو القواد .

السيف هى وحدها التى تستطيع أن تمسك بعصا الملك . . أى أن الحكم للأقوى .

ولم يرتض بقية الأمراء أن يكون حاجى برلاس و بايزيد جاليار حكاماً ، فاتجه كل أمير إلى ولايته يحشد رجاله و يعد عدته لصد أى عدوان ، وعصيان أى أمر ، وتفرق التتار بين هذه المعسكرات و بقى تيمور فى المدينة الخضراء مع مئات من رجاله الأشداء الأوفياء .

عند مااضطربت الحالة وأنذرت بالخطر رأى طغلك خان أن يعيد الأمور إلى نصابها فجاء بنفسه إلى سمرقند ، وتضاربت أفكار الأمراء هل يخضعون لأمره أو يشقون عصا الطاعة .

أما تيمور ، فاتخذ قراراً جريئاً قال : سأذهب للقاء الخان الأكبر !

ور بما كانت اللباقة أجدى فى هذه الحالة من المناوأة والقتال فلم يكن من الحكمة فى شىء أن ينزل تيمور إلى المعركة قبل أن يستعد ، ولم يكن يعقل أن يواجه بعدة مئات من رجاله عشرات الآلاف من الجنود المنظمين القدماء فى خدمة عاهل المغول ! .

وكان تيمور فقد أباه وواراه التراب ، وودّع زوجته وابنه ليقيما فى سلام عند أسرتها ، واهتدى بآراء أبيه الروحى ، الشيخ زين الدين ، ثم أخذ يجهز الهدايا الفاخرة والعطايا الثمينة ليقدمها إلى الخان الكبير .

الجنرال تيمور

كان تيمور أسرع المفكرين والمنفذين ، فانطلق مع رجاله فى أبهى ثيابهم الرسمية ، وسارت القافلة الضخمة من الجمال والخيل المحملة بما خف حمله وغلا ثمنه تذرع الطريق ، وقد توقفت عن سيرها اضطراراً مرتين عند مافوجئت بطلائع قوات الخان ، واضطر تيمور إلى أن يغمر قواد تلك الطلائع بالكثير مما معه من هدايا وتمرات . وأخيراً بلغ مضارب الخان وأعجب الأمراء والقادة بتيمور ، فأدخلوه عنده بتقديم حسن فاستقبله مرحباً واستمع إليه معجباً واستطلع أفكاره ونظراته بنفس الإعجاب والتقدير الذى تلقى بهما هداياه ونفائسه .

وكان تيمور قدم نفسه للخان بأنه زعيم البرلاس متناسياً الحكام الآخرين ، وكان رد الخان أن منح تيمور رتبة الجنرال « تومان باشى » أى قائد المائة ألف ، وأعطاه براءة حكم الإقليم .

وقد تعرض تيمور لمؤامرات الطامعين فى الحكم مثل حاجى بارلاس وبايزيد جالير . . ولكن نجا من هذه المكائد وتعرضت البلاد لحرب أهلية فسارع الخان بنفسه لحسم الموقف فقتل بايزيد وهرب حاجى بارلاس حيث لقى مصرعه على أيدى قطاع الطريق .

وأقام الخان ابنه إلياس حاكماً على بلاد التتار بمعاونة الجنرال بيكيجوك . . كذلك عين « تيمور » أميراً لسمرقند .

تيمور الشريد

لم يكن تعيين تيمور حاكما على سمرقند أمراً مطلقاً من الخان بل كان أمراً مقيداً . . ذلك أن حامية من المغول استمرت محتلة تحت إمرة قائدها جنرال بيكجوك فشعر تيمور بغصة فى حلقه زاد من مرارتها أن جنود الحامية أخذوا يعيثون فى الأرض فساداً متاجرين فى الأرزاق مستهينين بالأعراض مما أثار حفيظة المسلمين وجعل الشيخ زين الدين يجأر بالشكوى و يثير الشعور ضد المحتلين العابثين ، ولهذا رأى تيمور ضرورة وضع حد لهذه المساخر فكتب إلى الخان .. بينما تنبه الآخرون لموقف تيمور منهم فأرسلوا إلى الخان أن تيمور يشق عصا الطاعة وأنه بسبيل الخروج عن سلطانه ! فنجحت الوشاية ، وثار الخان وأرسل أمراً بإعدام تيمور الذى بلغته الأنباء مبكراً وأحس بالخطر مقبلاً فأسرع إلى جياده ومعه زوجته ونحو عشرين من رجاله الأوفياء الأشداء فجمعوا ماخف حمله ولاذوا بالصحارى . . وبدأت مرحلة التشرد والمغامرة والمشقة .

وراحت القافلة المشردة تشق طريقها على الرمال الحمراء من بئر إلى بئر ، فالماء حياة الصحراء ، وأخذت الليالى والأيام تطوى ساعاتها فى بطء بين الألم والأمل ، ولكن كل تعب ومشقة وظلام

كانت تبدده ابتسامة « الجا » سليلة الأمراء التى كانت تشع بنور الأمل فتضىء لزوجها حياته ، وتوقظ روحه ، وتبعث فيه الأمل ، كانت « الجا » خير معين لزوجها فى أعصب ساعات الشدة واليأس ، وكانت نفسها مؤمنة بأن حياته لا تنتهى هكذا فى التشرد والفاقة بل إن نجمه سيلمع و يضىء الدنيا بأسرها كما رأى والده فى منامه .

والتقى تيمور بشريد آخر كان بدوره أميراً على كابول ثم طارده الخان . كان الأمير حسين شقيق الجا زوجة تيمور فانضم الشريدان وتحالفا على ما كان فيه معه بلاء وقادا رجالهما الستين على أرض المغامرة والمشقة يخرجان من مأزق إلى مأزق ، ويمرقان من شرك إلى شرك حتى فقدا أغلب رجالهما ، ثم اتفقا على أن يبحث كل منهما عن مستقبله فى طريق .. حتى لا يقعا معاً فى أزمة واحدة تقضى عليهما معاً ، ومن ثم ذهب الأمير حسين وزوجته ورجاله ، و بقى تيمور وزوجته ورجل واحد وحصانين و بعض المؤن . وابتسمت الجا . . وقالت : يا مولاى ، إن هذه ليست النهاية !

وفى طريقه انضم إليه بعض الأعوان الفرسان المرتزقة ، ثم التقى تيمور بكثرة من رجاله القدماء ، وقد خرجوا فى ثلاث فرق للبحث عنه والانضمام إلى قيادته ، وقد أخـذ تيمور يتسلل إلى سمرقند يتعرف أحوالها ، ويجتمع سراً بالتتار بغية القيام بثورة ضد المغول ، ولـكنه

وجد أن الفرصة غير مواتية ، وأن المغول أكثر قوة ومنعة ، فآثر الرحيل إلى كابل ليلتقى بالأمير حسين ، وقطع مع جيشه الصغير خمسمائة ميل فى ظروف جوية ومعنوية قاسية حتى التقى الحليفان ، وشرعا فى العمل معاً ، وكانت أول مهمة لهما إنجاد أمير سجستان وإخماد الثورة التى نشبت فى بلاده ، وقد انتهى الأمر بخضوع هذه البلاد لتيمور والأمير حسين .

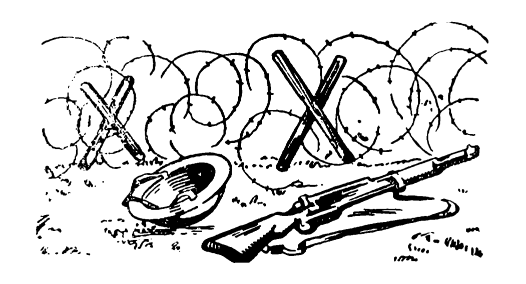
وفى خلال تلك المعارك أصيب تيمور بسهم فى يده ، وآخر فى قدمه اليمنى واستمرت عاهة قدمه ، فظل يعرج بها طول حياته ، ولذلك اشتهر باسم تيمور الأعرج .

ويبدو أن الأمير حسين قد اتخذ لنفسه القيادة دون تيمور ، فاتجه من تلقاء نفسه على رأس قوة من أنصاره بغية الحصول على انتصارات ضد المغول ، فاندفع فى مغامرة انتهت بهزيمته وتبديد جيشه ، واستطاع هو أن ينجو بنفسه ، وأن يعود .

وكان تيمور قد استعاد قواه ، وحشد جيشاً من أربعة آلاف محارب ، وعزم على بدء المعركة ضد المغول ، فصعد شمالاً حتى بلغ نهر آمو (جيجون) وبعث عيونه تكشف له مجريات الأمور ، فعلم أن بيكيجوك الحاكم العسكرى الطاغية ينشر الرعب فى المدينة ، ويسلب الأهالى أقواتهم .. فقرر تيمور أن يضرب ضربته !

ولما سمع القائد المغولى بما تناهى إليه من أمر تيمور . أسرع بقواته إلى احتلال نهر الآمو ليمنع عبوره ، وقد خدعه تيمور متظاهراً بانصرافه عن العبور ، وآخـذ يتلمس مخاضته حتى عبر النهر فى ليلة ظلماء ، وأصبح وراء جيش المغول ، فهزمه شر هزيمة ، وقبض على بيكيجوك فى الوقت الذى وصلت فيه الأنباء بموت طغلك خان ، فانصرف ابنه إلياس ليستولى على عرش المغول .

وتقدم تيمور إلى « المدينة الخضراء » فشدّد عليها الحصار ، وفرَّ حاكمها المغولى وحاميتها ، ودخلها تيمور . الذى دانت له بلاد « ما وراء النهر » .



قويت شوكة تيمور ، وسارع بتنظيم قواته . فقد كان يعلم أن المعركة آتية لا ريب فيها بينه و بين المغول ، وخرج ينظم دفاعاته بعيداً عن الغرض ـ كما صار يفعل القادة فى الحروب الحديثة ـ وجعل قواته قلباً وجناحين ، ولـكل قسم قوة ضاربة وأخرى احتياطية ، وبذلك طبق مبدأ الحشد والاقتصاد فى القوة ، ووضع خطته على أساس أن تـكون القوة الرئيسية فى الجناح الأيمن تحت قيادة الأمير حسين ، ووضع نفسه على رأس الجناح الأيسر .

وخيل لقوات تيمور أن الحظ تخلى عنها ، فقد أمطرت السماء مدراراً ، وأشيع أن المغول قد افتعلوا ذلك بقدرة السحر ! ؟ وتقوى إشاعة السحر هذه إلى حد قول بعض المؤرخين : إن المطر لم ينقطع إلا بعد مصرع أحد السحرة فى ثانى أيام المعركة ! كذلك تقوى بما لوحظ من استعداد المغول بالملابس الثقيلة والأغطية الواقية . . ! ؟

وقد ثبتت قوات تيمور فى هذا المأزق ، رغم أن محلات دفاعهم صارت طيناً وماء ، ولـكن روحهم المعنوية كانت عالية ازاء تصميم قوى و إدراك تام لأهمية المعركة وضرورة كسبها .

وبدأت المعركة بهجوم شديد من المغول جعل الجناح الأيسر يتراجع ، فدفع تيمور باحتياطيه ، ثم لمع فى ذهنه خاطر جرىء .. فأصدر أمره بالتقدم فى بحر من الوحل ، واندفاع غير نظامى ، بينما مرق تيمور كالسهم الخاطف إلى قلب الجيش المغولى ، وعلا صياح التتار ودقات الطبول ، فارتج على قيادة المغول ، وظنوا أن النصر لخصومهم .. فاضطرب أمرهم وشرعوا فى الانسحاب .

وأخذ تيمور يرقب المغول من قمة تل مرتفع ، ويضع خطة استغلال النجاح ، ولكن جناحه الأيسر تحت قيادة الأمير حسين كان بطيئاً فى حركته مضطرباً فى قيادته فاضطر تيمور إلى الانتظار فى مكانه ! ؟ وضاعت منه فرصة تطويق المغول ، والقضاء على قواتهم الرئيسية التى بدأت تتجمع وتستعيد شأنها . . وتعود إلى القتال !

وأفلت زمام المعركة من يد تيمور بسبب أخطاء الأمير حسين واستهانته بأوامره وبدأ ضغط المغول يتخذ شكلاً عاماً على طول الجبهة ، واضطر تيمور إلى التراجع نحو سمرقند فوجدها تدافع ببسالة فانحرف عنها ، واتجه إلى الوادى لإعادة تنظيم قواته ، وضم متطوعين جدداً . . وفى تلك الساعات الحالكة فقد تيمور زوجته « الجا » على أثر مرض مفاجىء . . وقد كانت بمثابة الشعاع الذى يضىء له فى الظلمات .

وكانت سمرقند قد تصلبت فى دفاعها وردت للمغيرين سهامهم إلى نحورهم ، وأقبلت أفواج المتطوعين من بخارى وغيرها فانقلب ميزان المعركة ، وانهزم المغول . . وارتدوا عن المدينة بخسارة كبيرة فى الأنفس والخيل والأسلحة ، ثم غادروا الإقليم كله .

وهكذا انتصرت روح الأهالى على أسلحة المعتدين ، وفازت المقاومات الشعبية على تكتيكات الغزاة .

واحتفلت سمرقند بالنصر فتعالت التكبيرات من المآذن وصدحت الموسيقات وانتشرت الأعلام ، وأقيمت صلوات الشكر ، ودخل تيمور والأمير حسين المدينة فاستقبلا بحماسة بالغة ، وصارا مالكين لزمام الأمور من حدود الهند إلى بحر أرال .. إلا أن تحالفهما الظاهر لم يكن يخلو من أسباب الكراهية والخداع ! ؟

عملية تمويه

وبدأت المعركة بين تيمور والأمير حسين ، أى بدأت الحرب الأهلية لتقرير المصير وتوحيد الوطن الجديد تحت قيادة واحدة .

واستقر رأى تيمور على غزو « كرشى » ، وقد تم ذلك بعملية خداع رائقة .

فقد أذاع تيمور أنه سيتجه إلى الجنوب لمقابلة ملك الحيرة والتحالف معه على غزو الشمال ، ونقلت قوافل التجار هذه الأنباء واتجه تيمور فعلا إلى الجنوب ريثما يستقر فى أذهان خصومه صدق الإشاعة . ثم انقلب فى الليل فعاد واستخدم أساليب التمويه والخداع لإخفاء موقفه ونياته فى الوقت الذى كانت حامية المدينة مطمئنة إلى أنه فى طريقه إلى الجنوب . . فلم يكن ثمة استعداد أو ترقب !.

وقام تيمور مع أحد رجاله بمهمة الاستطلاع لمعرفة منافذ المدينة وخطوط دفاعها ومدى استعداد حاميتها ، وعلم أن الحراس ينامون الليل غير مبالين . . فأصدروا أوامره للتسلل الهادىء قبيل الفجر ، وعندما أشرقت الشمس كان رجاله قد استولوا على القلعة والدفاعات وسلمت الحامية وأعلنت خضوعها . . وانضوى الجميع تحت لواء تيمور .

وبدأ نجم تيمور فى الصعود ، وطار صيته فى جميع الأقطار

وانضم إليه رؤساء القبائل وأصحاب الزعامات و بعض كبـار المغول بينما أخذ أتباع الأمير حسين ينفضون عنه ، وأخذ نفوذه يتضـاءل كما يحدث لقطعة من الثلج أمام حرارة الشمس المشرقة . . . وقد اختلف الرواة فى تسجيل نهاية الأمير حسـين ، ولـكن مما يذكر لتيمور أنه أعلن رفع يده عنه ، أى أنه لم يأمر بقتله نظراً لما كان بينهما من صلات قديمة !؟

زعيم التتار

عند وفاة الأمير حسين اجتمع زعماء القبائل من حدود الهند إلى الأقاليم الشمالية ومعهم كبـار رجال الدين وأخذوا ينظرون فيمن يولّ زعامة التتار ، وكان رأى بعض الرؤساء اتباع نظام جنكيز فى أن يولى الزعماء أحد سلالته ، بينما رأى البعض أن تقسم البلاد إلى أقاليم يتولى كل قائد قسما منها ، وقاوم أئمة المســلمين هذه الآراء . . وقال قائل : « إن سيف تيمور ليس أقل شأناً من سيف جنكيزخان » .

أما المحاربون فقــد رأوا فى تيمور القائد القوى الذى يستطيع توحيد الصفوف ، وتوجيهها لحمـاية الدولة الناشئة ، وتدمير المغول القابعين فى الشمال ، وأما المسلمون فقد اختاروه لأنه مسلم يحمل السيف والمصحف ، فيقضى بهما على المشركين أعداء الإسلام ، مغول جنكيزخان .

وفى اليوم التالى لهذا المؤتمر الجـامع قدم تيمور فاستقبله الأمراء وزعماء القبائل ورجال الدين وبايعوه جميعاً سيداً وأميراً لبلاد ماوراء النهر . . وأقسم الجميع على المصحف أن يدينوا بالطاعة لتيمور . وكان هذا فى عام ١٣٦٩ ، وقد بلغ تيمور الثانية والثلاثين من عمره ! ؟

وشرع الأمير الجديد ينظم حكومته ، ويعين وزراء وحكام المناطق ، وعجب المؤرخون للمحارب البدائى وقد صار مشرّعاً ومنظماً ورئيس دولة يجمع خطوطها الرئيسية جميعاً فى يده .

وعرف تيمور أن مركزه محفوف بالأخطار ، وأنه لم يصل إلى كرسى الإمارة إلا بنفسه وعزمه وشقائه فكان عليه أن يعمل بسرعة وقوة للقضاء على خصومه وتأمين سلامة مملكته الجديدة فسارع بالقضاء على أتباع الأمير حسين الذين ناصبوه بالأمس العداء فهدم مساكنهم وقيد أسراهم وحرق ممتلكاتهم ، ثم أخذ يبعث السرايا و يشن الهجمات على مشارف بلاد المغول لكى تعود ببعض الأسلحة و بعض الرؤوس . . ووضع خطة التدمير على رأس خططه الحربية .

وقرر أن خير وسائل الدفاع : الهجوم .

وعنى تيمور بالضبط والربط ، فعلّم قواده وجنوده احترام النظام وسرعة تنفيذ الأوامر وأخذ يكافىء المحسن و يعاقب المقصر و يبتكر فى العقوبات ، فالجندى الذى يثبت تخاذله فى المعركة أو خوفه من القتال كان يؤتى به فيربط فى حمار بحيث يصبح وجهه فى ذيل الحمار ، ثم يمر هذا المشهد الطريف فى شوارع سمرقند عدة أيام حتى يراه الجميع ، فتكون فيه سخرية ، وعظة ! .

وكان شعار تيمور : الحكمة والشدة .

وقيل : إنه يحكم بالعدل و يسخو فى المكافأة . .

ولكنه كان فظيعاً فى انتقامه ، ولا يكتفى بالنصر الحربى و إنما يؤكده بالقتل والهدم والحريق . . و بذلك يعلم خصومه بالنتيجة سلفاً .

وقد قرر أن يقضى على جيرانه الأقوياء بالحسنى !

فلما لم يمتثلوا أرسل إليهم شواظاً من جهنم . و بدأ بأمير خارزم سيد كيفا وأورجانج و بحر أرال ، وكان لا يزال على موالاته للمغول وتجاهله لتيمور . . فأرسل إليه تيمور وفداً يحمل هدايا ونفائس وطلب يد ابنته خان زادة الجميلة لإبنه الأكبر جاهنجير .

ولكن الأمير حسين الصوفى فطن للأمر وظن أن تيمور يريد سحب سلطانه وسلب ولايته فأرسل إليه يقول « لقد غزوت خارزم بحد السيف ، فمن أرادها فليأخذها بحد السيف » .

وهكذا لم يعد معدى عن القتال ، وإذا رسالة أخرى تصل من الصوفى يقول فيها أميرها « لماذا نزهق أرواح الآخرين ونجرى الدماء مدراراً . تعال لملاقاتى وجهاً لوجه ، فيحسم أحدنا الموقف » وحددت الرسالة الزمان والمكان .

وانطلق تيمور رغم معارضة أعوانه ، و بلغ المكان وطلب اللقاء ولكن خصمه لم يكن عند كلمته ولم يجسر على الحضور ، فقال تيمور : « إن من ينقض وعده يستحق أن يحرم الحياة » وعاد ليقود جيشه

غير أنه سمع بمرض الأمير الصوفى ثم وفاته . . فانقشعت سحابة الحرب ورضخت البلاد لأمر تيمور ، وصار إبنه حاكما عليهـا وتزوج الأمير خان زاده .

ونظر تيمور حوله ثم اتجه إلى الجنوب . . إلى « هراة » التى كان يجلس على أريكتها الأمير الشـاب غيث الدين فدعاه تيمور إلى زيارة سمرقنـد . . فرد على ذلك بعمل استحكامات الدفاع و إعداد حاميات المقاومة .

وتحركت قوات تيمور جنوباً لغزو « الباب الحديدى » ، و بين دقات الطبول وصياح التتار تم غزو العاصمة فاندحرت الحاميات وفر الأهالى ، فطلب غيث الدين الصـلح ، وأجيب إلى طلبه وأرسل إلى سمرقند . . ومعه البوابات الضخمة التى كانت تحمى هراة ، وأيضـاً الـكنوز والأموال .

وكانت « هراة » عاصمة متقدمة أعظم من لندن و باريس فى ذلك الحين ، فـكان أهلها نصف مليون ، بينما لم يزد سكان لندن أو باريس عن ٦٠ ألفا ، وكان بها مئات المدارس وثلاثة آلاف حمـام وعشرة آلاف محل تجارى ؟ !

وفى عام ١٣٦٩ كان تيمور قد صار قائداً وحاكما وغازيا لمملـكة بلغت خمسمائة ميل مربع فأخذ ينظر عبر مملـكته الصغيرة و يرنو ببصره إلى العالم الفسيح ، واتخذ لنفسه لقب الخاقان الأعظم .

سمرقند

أصبحت مدينــة سمرقند حاضرة الملك الجديد . بالنسبة لمركزها الحيوى واتساعها ووفرة أسباب الحيـــاة والنشاط فيها ، فبارح تيمور مدينته « الخضراء » رغم ما كان لهـا فى نفسه من مكانة وذكريات ، وقد أقام على قبر والده قبـة ذهبية عظيمة ، وهدم القصر القديم الذى أضـاء فى سالف الأيام بجمال زوجته أولجا ، ثم أقام مكانه قصراً شيقاً به حديقة جميلة وله بوابة فخمة عاليـة الذرى ، وقد صار القصر مشهوراً باسم « البيت الأبيض » يقضى فيه تيمور فصل الشتاء .

وإلى جانب ما تميزت به سمرقند من مركز متوسط وخيرات وافرة فقد كانت لهـا شهرة تاريخية ، ففيها أقام الإسكندر المقدونى فترة من أزهى أيام مجده ، وفيها عسكر جنـكيز خان عندكان يحصد الأعمار وينهب الأرزاق ، وقال عنها ابن بطوطة المؤرخ العربى الرحالة المشهور :

[هى من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا . مبنية على شاطىء واد يعرف بوادى القصارين عليـه النواعير تسقى البســاتين وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات ،

وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبىء عن علوّ همم أهلهـا وإن كان أكثرها متهدما ، وقد خرب كثير من عمـارة المدينة ، ولا سور لها ولا أبواب عليها ، وفى دخلها البساتين .

وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ومحبة للغريب .

وبخارج سمرقند قبر « قثم » بن العباس بن عبـد المطلب ، وهو الذى استشهد حين فتحها ..] .

وقد كانت سمرقند كثيرة المـاء خصبة الأرض ينعم أهلها بأربعة مواسم فى السنة وتحيط بها السواقى تدر الماء وتزيد الخصوبة وتـكثر الخيرات .

وكان استقبال تيمور فى سمرقند حافلا عظيما ، خرجت البلدة على بكرة أبيها لاستقباله ، وأخذ أهلها يطلقون على تيمور « الأسد الفاتح » ، « والملك العظيم » .

وما أن وطأت قدم تيمور عاصمة ملـكه حتى مد لها يد الإصلاح فشق الشوارع الفسـيحة وأقام القصور وأنشـأ الحدائق ، وأقام القلاع على أنقاض الأحيـاء القديمة وجلب لهـا الصناع وأرباب الحرف لـكى ينشئوا فيها صناعات وفنوناً وعمراناً ، وجعل اللون الأزرق لوناً رسميـاً فاشتهرت سمرقند باسم « المدينـة الزرقاء » ، وكانت موضع إعجاب سـفراء الدول الذين ذكر المؤرخون أنهم كثيراً ما كانوا يتنزهون فى شوارعها النظيفة المستظلة بشجر الحور ،

وتزوج تيمور زوجة الأمير حسين « سارة خانم » كعادة ذلك العهد ، وهى تنتسب لجنكيز خان ، وكانت موضع احترام الشعب وتقدير ذوى الرأى .

و بلغت سمرقند عصرها الذهبى بتقدم العمران ونشاط التجارة وزيادة الخيرات ، وذلك كله بين أضواء الانتصارات التى أحرزها تيمور و بلغ بها حدود بلاد المغول ، حيث البقية الباقية من آثار جنكيز تعتز باسمه وترتكن على جمع من سلالة المحار بين الأشداء الذين ورثوا الاندفاع فى الحرب والإقدام على السلب والنهب ، وكانت عاصمة المغول « سارى » على نهر الفولجا ـ شريان روسيا الحيوى ـ ولها النفوذ على سياسة أوربا الشرقية .

وكانت الدولة القوية الناشئة التي أقامها تيمور قد بلغت حدود الدولة الغاربة التي خلفها جنكيز . ولم تعد بينهما سوى حدود وهمية لا تدفع إغارة ولا تمنع التحرش والاشتباك ، ولهذا لم تكن عن الحرب مندوحة .

وقد حدث أن هرب أحد أمراء بلاد القرم من أتباع الخان ويدعى توكتاميش ، لجأ إلى تيمور يحتمي به ، فبعث أوروس خان في طلبه لأنه كان قاتلاً وأنذر تيمور بالحرب إذا هو لم يسلم المجرم فرفض تيمور وأعاد وفد الخان برسالة مقتضبة قال فيها :

إن توكتاميش طلب حمايتي ، وليس بطوق تسليمه !

وكان معنى هذا أنه مستعد لمحاربة الخان . .

والعجب أنه لما مات الخان راح توكتاميش يطالب بالعرش وأيده تيمور حتى حقق أمنيته . . فلم يحمد له إنقاذه لحياته ، ولم يحفظ له جميل مساعدته حتى وصل إلى سرير الحكم . . وإنما قلب له ظهر المجن وقابل إحسانه بالإساءة ، وقرر غزو سمرقند ونهب مملكة تيمور .

أخذ توكتاميش يعد العدة لمحاربة تيمور ، فانتهز فرصة غيابه

فى نواحى خراسـان وأطبق بقوات جرارة على مملـكته وراح يخرب ويدمر ما وسعته الفرصة ويثير القبائل ويشيع الفتنة ، وقد صدته قوات التتار التى كان قيـادها معقوداً لابن عم تيمور « عمر شيخ » وما أن بلغت هذه الأنباء أسماع تيمور حتى ارتد مسرعاً ليأخذ بيده زمام الأمور ، وكان فى قدومه مايحمل عدوه على التفـكير فى أسـلم الوسائل وأفضل الحلول .. فقرر توكتاميش الجلاء وقنع من الغنيمة بالإياب ، تاركا خلفه طريقاً مخضبة بالدماء .

عاد تيمور إلى عاصمة ملـكه فنفض عنهـا طابع الأسى وبعث فى أهلها القوة ، وأعاد لجيشها الهيبـة ، وقضى على الفتن التى رفعت رأسها فى غيابه وسلمت ألويتها لعدوه ، وكافأ الذين أحسنوا الذود عن حماهم وعاقب على الذين فرطوا فى واجبهم وأساءوا إلى ديارهم ، وقضى على كل معالم الهزيمة والفوضى .. وأخذ يستعد لرد الصاع صاعين !

وأقبل توكتاميش على محاولته الثانية يدفع جيشاً جراراً داخل مملـكة تيمور الذى كان يترقب هـذه العملية الخاطفة بخطة تجمع بين الجسارة والمفاجأة ، فلم يتجه إلى قلب العدو . . وإنمـا شغل المواجهة بقوات سـاترة ، ودار حول جناح العدون فى حركة تطويق فذة ! وشعر توكتاميش بأن قوات تيمور تحـــــاول قطع خط الرجعة فانـكفأ منسحباً وارتد إلى حدوده مسرعاً . . وهنا برزت حصافة

تيمور وحسن تقديره للموقف . . فإنه لم يخدع بهـذا الانسحاب ، ولم يفـكر فى تعقبه ، و إنما آثر التريث وغالب زهوة النصر حتى يدرس الموقف تماماً و يختار المـكان والزمان المناسبين لقهر خصمه . .

وهكذا تفادى تيمور الشرك الروسى الذى وقع فيه ـ بعد عشرات السنين ـ نابليون ، ثم هتلر !

وقد كان عليه قبل ذلك أن يقضى على ثورة بعض الولايات التابعة له التي أغرتهـا المعركة بشق عصا الطاعة . . فلما استتب له الأمر واجتمعت عنده القوة أخـذ يرنو صوب المفازة الهـائلة والأرض المجهولة حيث يكمن العدو الأكبر . . وقال تيمور :

الآن . . إلى روسيا !

حملة روسيا

إن التاريخ يعيد نفسه .

.. نعم فى نفس المفازة الثلجية القاسية ، وعلى ذلك الثرى العريض قضت جيوش عديدة وانهزم قادة جبابرة ، هناك حيث تقف الطبيعة فى وجه المغير تعطل تقدمه وتشل حركته وتنزل به البلاء فيعود من حيث أتى مثخناً بالجراح .. أو لا يعود .

إن الحملة على روسيا عملية جريئة تدخل فى عداد المخاطرة أو المجازفة .. أو الانتحار ! وقد انخدع الكثيرون إذ قدروا الموقف من ناحية عدد الجيوش وأسلحتها ومعداتها ولم يفطنوا إلى الأحوال الجوية ، و إلى اعتياد الروس على طبيعة بلادهم ، و إلى خطط الروس التقليدية فى التراجع مسافات كبيرة مع تدمير المدن و إشعال الحرائق حتى تفعل الطبيعة فعلها مع الغزاة ، وتجهزهم للهزيمة النهائية .

هذا هو ماحدث لجيوش كثيرة أهمها وآخرها جيوش نابليون .. وهتلر ..

وقد فكر تيمور فى عدوه تفكير القائد الحصيف الذى يجيد تقدير الموقف .

درس تيمور البلاد وطبيعتها ، وأهلها وجندها ، والخطط المنتظرة ..

ودرس أيضاً حالة قواته ، ومعـــداتها ، وما يجب أن يكون عليه تموينها .

وكانت خطته تلخص فى الآنى :

١ ـ اختيار أكثر الطريق ملاءمة للحملة وأهدافها .

٢ ـ تقدير ماتحتاجه قواته من أسلحة ومعدات ومؤن .

٣ ـ تجهيز الحملة الـكافية لنقل المؤن والملابس الثقيلة والحاجيات التى لا غنى عنها .

٤ ـ الاشتباك السريع مع العدو فى معركة قصيرة فاصلة .

٥ ـ تعبئة خيرة القوات والقواد لهذه المجازفة الـكبرى .

وقد يقول قائل : ولماذا المجازفة ؟. أليس الأفضل أن يقنع تيمور بمملـكته الـكبرى فلا يعرض قواته وشعبه ومستقبله لعملية غير مأمونة العواقب ، ويكفى نفسه مشقة الحرب المجهولة ..؟

والرد على ذلك أن الحرب واقعـــة لا محالة .. وقد تعرض تيمور من قبل لهجوم عدوه مرتين فإذا لم يعاجله بضربة قاصمة ، فسوف يعيش مهـدداً ، وتنكسر معنويات شـعبه وجيشه إزاء هجمات العـدو المتوالية .. ولهـذا فإنه خير له أن يهاجم .. وأن يجازف !

ويمـكن القول بأن تدبير تيمور لم يجعل حملته على روسيا مجازفة

غير معروفة العواقب ، وإنما جعلها خطة مدروسة يتوفر لها النجاح لأمور ثلاث :

الأمر الأول : أنه أعد عدته لمهاجمة العدو فى معركة حاسمة ، وكان يقول « إن وجودى فى مكان الموقعة ومعى عشرة من الجند خير من وجودى بعيداً عنها ومعى عشرة آلاف » !

الأمر الثانى : أنه قدر أهمية المفاجأة ، بأن يبادر خصمه فى وقت ومكان غير متوقعين قبل أن يتمكن خصمه من حشد حشوده وإحكام خطته .

الأمر الثالث : أنه لايحرك قواته إلا وقد حمل لها كل ماتحتاجه من أغذية ومؤن ومهمات .

خرج تيمور على رأس مائة وخمسين ألف فارس وراح يتقدم على حذر ، من حصن إلى آخر من حصون الحدود ، حتى إذا اضطرته الثلوج أن يتوقف ، أقام مكانه حتى انتهى فصل الشتاء وجاءت مع طلائع الصيف رسل الصلح والسلام بعث بها خصمه السادر فى غدره .. وقال تيمور :

لما جاءنى أميركم هارباً وضعته فى حمايتى ومنعت يد الخان أن تطوله ، وساعدته حتى وصل إلى عرشكم ، فلما أصبح قوياً تناسى خدماتى له وأغار على بلادى التى آوته من قبل عندما كان شريداً فأعمل القتل فى أهلها والفتنة فى ولاياتها والخراب والدمار فى مدنها

ثم عاد فأرسل جيشاً ثانياً لمحاربتى ، فلما شرعت فى التقدم للثأر أرسلكم قائلا : إنه يريد الصلح ، وأنا فى الواقع لاأومن كثيرا بعهود أميركم ؛ فإذا كان يريد الصلح حقاً فما عليه إلا أن يرسل وزيره « على بك » للاتفاق والتفاهم .

ولم يأت الوزير . . وظهرت اللعبة !

وصمّم تيمور على العمل بسرعة . .

نظم قواته وسار فى تعبئة كاملة فى بلاد الأشباح ، وكان للناحية الإدارية نصيب كبير من عنايته . . وبذلك استطاع أن يقطع ١٨٠٠ ميل فى خمسة أشهر وتعتبر هذه الرحلة من أشق الرحلات التى قطعها جيش فاتح .

وعندما بدأ التلاقى كان تيمور يطبق مبادىء الحرب ، فاستخدم الحشد وخفة الحركة والمفاجأة واستخدام الإحتياط فى الوقت المناسب ، والمطاردة . .

كانت خطة تيمور تقضى بوضع قوات فى مواجهة العدو لتثبيته وشغله عن العملية الرئيسية ، وهى حركة تطويق جنبه الأيسر التى وفر لها القوة الضاربة والسرعة البالغة فطوت ذلك الجنب ، فلما شرع الروس فى مقابلة ذلك الهجوم بهجوم فى الناحية المقابلة لم يغير تيمور خطته وإنما دفع باحتياطيه لسد الثغرة وصد الهجمة ، وبذلك فوّت على العدو

فرصته ، فارتد على أعقابه وأخذ فى الجلاء . . ولم يكتف تيمور بهذه المعركة ، ولم يدع لخصمه الفرصة للانسحاب المنتظم بل عاجله بالمتابعة ! فلم يكن ممن يخدعون بارتداد العدو ، ولا ممن يرحمون عدواً منهزماً ! وكانت المطاردة جد قاسية على الخصمين ولكن تيمور أحالها إلى معركة دامية ، مجزرة نهب فيها أرواح مائة ألف وذخائرهم وأسلحتهم وأقواتهم . . و بعدها وافق على الهدنة ! ؟

وعلى نفس المسرح عادت المعركة بعد ثلاث سنوات ولنفس السبب ! فقد نقض توكتاميش الهدنة ، فلم يجد تيمور بداً من وضع حد نهائى لهذه الأحداث فهجم على العاصمة « سارى » وقضى عليها قضاء مبرما وأحرق عدة مدن وعاد على أنقاض مملكة المغول بعد غزوة تاريخية قضى فيها على خصومه قضاء أخيرا . . ودالت دولة المغول وأشرقت دولة التتار .. أو دولة تيمور .

فى بلاد فارس

كان تيمور متوقد الذهن دائم اليقظة لا يفتأ يمد بصره فيما حوله من تخوم وأقطار ، يصرع خصومه و يغير على جيرانه و يوسع فى مملكته الناشئة و يرقى أحوال شعبه ، و يدير أموره جميعاً على محور القوة والحنكة ، وقد ظل دهراً طو يلا لا يفكر فى غزو دولة المسلمين احتراماً للناحية الدينية ، فلما ساء حكم الولاة وتدهورت أحوال البلاد ، غيَّر تيمور فكره وجعل خطته الجديدة متجهة إلى فارس .

وقد كانت النكسة التى أصابت بلاد فارس هى التى أغرت تيمور بغزوها فقد كان الشاة ضعيفاً والأمراء يتنازعون السلطان وكان كرسى الحكم يغرى أصحاب النفوذ فينقلب الأمير على الشاه أو يصرع الأخ أخاه ، ثم يقول « لقد حققنا قسمة عادلة ، لى ما فوق الأرض ، وله ماتحت الأرض » ! ؟

واستغل حكام فارس بلادهم الغنية أسوأ استغلال وانصرفوا إلى أهوائهم ومصالحهم الشخصية دون ما تقدير للصالح العام ، وكانت هناك ثمة اتفاقية بين تيمور والشاه من نوع اتفاقيات الود وعدم الاعتداء وقد أحس الشاه بقرب منيته وخشى على بلاده من

الفرقة والضياع ، وتذكر أن تيموراً على استعداد فكتب إليه يسترضيه ويذكره « بالمعاهدة » أملا فى حفظ بلاده لولى عهده ، قال :

[إن أقصى منأى أن تكون هذه المعاهدة بيدى يوم القيامة لكى لاتقف أمامى قائلا :

إنك قد خنت العهد ، وحنثت بالوعد .

إننى لم أقم بعمل أخجل منه سوى ذلك العبث الذى انصرفت إليه فى حياتى ، وهو من الأمور التى يضطر إليها المرء اضطراراً .

إننى أموت مطمئنا وأسأل الله أن يؤازركم ويؤيدكم ، وكل رجائى أن تعطفوا على ولدى « زين العابدين » الذى سيجلس على العرش من بعدى وأن تصلوا على روحى . .]

ومات الشاه . وكثر الطامعون فى عرشه . وانتهى كل أمير إلى بلد يرفع عليها رايته ، فاستقل أحدهم باصفهان والثانى بشيراز . . وهكذا كل يدعى لنفسه الحول والطول والاستقلال . . وكان رسل تيمور يرقبون مجرى الأمور ، فلما بلغته أنباء التطاحن وأخبار الفرقة قرر أن يهبط على الغنيمة فينال نصيبه . . وأى نصيب ! ؟

غزا تيمور أرض فارس فى عام ١٣٨٦ ، غزوة بغير قتال ! فقد استقبله على مشارف أصفهان كبار أهل المدينة يعرضون عليه تسليم بلادهم ، ويرتضون الجزية التى يفرضها ولكن حدثت بعض مناوشات

واشتباكات بين الأهالى والجنود ، فانتهزها تيمور فرصة سانحة تناسب أسلوبه المعهود فى الغزو فاقتحم المدينة وعصف بأهلها وأمر أن يحمل إليه كل جندى من جنوده رأس أحد الخصوم فحصدوا له سبعين ألف جمجمة صنع منها هرماً هندسياً بالغ الروعة ! ؟

وخضعت فارس لحكم التتار ، ودفعت الجزية ، وخطب باسم تيمور فى الجوامع وعين من قبله والياً عليها .

إمبراطورية تيمور

في عام ١٣٨٣ كان تيمور قد بلغ الخمسين من عمره وهو يحكم إمبراطورية واسعة الأرجاء نامية الثروة مترامية الأطراف ، وقد ذاع عنه لقب « الأمير تيمور » واشتهرت مملكته باسم إمبراطورية ما وراء النهر ، أو إمبراطورية تيمور .

وكان الفاتح الكبير كلما هم بمسير اندفع حوله رجاله كالريح الهوجاء لا تصمد أمامها الحصون ولا تثبت حيالها الجيوش ، فالتتار كانوا قوماً غير متمدينين ، الحرب شريعتهم والغزو مبتغاهم ، لامعنى للمعركة عندهم غير القتل والتدمير والسبي والغنائم ، وقد وصفهم ابن عربشاه ، فقال :

[كان جيش تيمور مؤلفاً من رجال توران وأبطال إيران ، ونمور تركستان وفهود سجستان وصقور الدشت والخطا ونسور المغول وكواسر الجيتا وأفاعي خجند وثعابين ايدكان ، وهوام خوارزم وجوارح جرجان وعقبان صغانيان ، وضواري حصار شادمان ، وفوارس فارس ، وأسود خراسان ، وضباع الجبل وليوث جازندران وسباع الجبال وتماسيح رشمدار وطالقان ، وأهل قبائل خور وكرمان وطلس أرباب طيالس أصبهان وذئاب الري وغزني وهمدان ، وأفيال الهند والسند وملتان وكباش اللور وثيران شواهق الفور وعقارب شهرزور وحشرات عسكر

عكرم وجندى سابور . . مع ما أضيف إليهم من أعيار الخدم وفواعل التراكمة والأوباش والحشم وكلاب النهاب من رعاع العرب وهمج العجم وحثالة عباد الوثن وأنجاس مجوس الأمم ، مما يكتنفه ديوان ولا يحيط به دفتر حسبان] ! ؟ .

ومهما يكن فى هذا الوصف الغريب من مبالغات وتشبيهات لاذعة ، فإن أحداً لا يستطيع أن يدفع عن جيش تيمور مالصق به من صفات الهمجية والوحشية ، وما اقترن بإغاراته واعتداءاته من حوادث مشئومة وأعمال نكراء ترفع عن أصحابها صفة الإنسانية وعلامات المدنية .

ولكن تلك الرقعة من السواد التى أحاطت بتاريخ تيمور لا تمنع من النظر بعين التقدير والاعتبار لتلك الشخصية العالمية الفذة التى لمعت فى الظلمة الحالكة وشقت طريقها فى الصخر والشوك ، وانطلقت من النشأة المتواضعة إلى السيطرة العريضة والشهرة المدوية ، واجتمع لهذه الشخصية من المواهب العسكرية والمزايا السياسية ، ماجعل لصاحبها مكانته الثابتة فى التاريخ وإسمه الداوى فى قائمة العباقرة من جميع العصور .

وقد برزت عبقرية تيمور العسكرية فى قيادته الحكيمة لجمهرة همجية لا تعترف بالقواعد والأصول ، فخاض بها الأهوال ، ونازل بهـا أعظم الجيوش فى زمانه وغزا الحصون المنيعة ، وقضى على الممالك

العتيدة . . كما برزت عبقريته السياسية فى إدارته لدفة الحكم و إشرافه على جميع الشئون السياسية والاقتصادية والمدنية فى إمبراطورية شاسعة الأرجاء مختلفة المذاهب متعددة الأجناس .

كان إذا غزا مملكة وأدخلها فى طاعته عيّن عليها والياً من أبنائها يسوس أمرها فى ظلال توجيهاته ومراميه ، يجمع له الجزية و يدين له بالولاء ، و يأخذ أبناء الأمراء إلى العاصمة سمرقند رهائن حرب فإذا ظهرت فى بلادهم مؤامرات ، أو خيانات ، دفع هؤلاء الأمراء حياتهم مقدمة للانتقام .

وكان معنياً بترقية بلاده ومدنيتها ، وقد اشتهر عنه ابتكاره لنظام البريد واهتمامه بالمواصلات ، ففتح الطرق ، وأقام الجسور ، ومدّ أنابيب المياه ووضع الجمرك والمكوس ، وجعل فى الطرق الطويلة محطات للخيول والمياه .

وجاء وصف نظام البريد الذى ابتدعه تيمور فى كتاب ابن بطوطة ، ومنه :

البريد صنفان : بريد الخيل ، و بريد الرجالة ، فأما بريد الخيل فيسمونه « الولاق » وهى خيل تكون للسلطان أو الحاكم أو الأمير فى كل مسافة أربعة أميال .

أما بريد الرجالة فيكون فى مسافة الميل الواحد أو يكون أقل من ذلك إلى الثلث ، وترتيب ذلك أن يكون فى كل ثلث ميل قرية

معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيهـا الرجال مستعدين للحركة قد شدّوا أوساطهم وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل من نحـاس . فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الـكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى وخرج يشتد بمنتهى جهده ، فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له فإذا وصلهم أخذ أحدهم الـكتاب من يده ومرق بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى المحطة الأخرى . . ولا يزالون كذلك حتى يصل الـكتاب إلى حيث يراد منه ، وهذا البريد أسرع من بريد الخيل ، وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة من مكان إلى إلى آخر ، وفقاً لرغبة الأمير أو الحاكم أو من يقوم مقامه] .

وجعل تيمور لجيشه نظاماً وقواعد وحدوداً لا يخرج عنها أحد ، فـكان « الضبط والربط » الذى عرفناه حديثاً هو الأساس الذى بنى عليه جيشه فتحوّل الهمج إلى جند نظاميين يعرف كل منهم مكانه فى العمل وحدوده فى المعاملة ، وكان الجندى يتناول راتباً معيناً ولا يسمح له بالاعتداء على أحد أو التطاول على غيره .

وكان التجار يدفعون الضرائب حسب تجارتهم ، فـكان ذلك من أسباب الدخل الوفير ، وكان أكثر القوافل فى ذلك العهد تفـد إلى مملـكة تيمور وتمرّ من القسطنطينية إلى بلاد فارس فسمرقند فبلاد الهند ومن البحر الأسود إلى خليج فارس إلى خراسان . . وبذلك

كانت طرق التجارة العالمية تحت ناظريه ، وكانت وارداته تفوق واردات ملك فرنسا فى عهده .

ومثلما اهتم تيمور بشئون التجارة كان معنياً بالزراعة وإصلاح أحوال الفلاحين ، فقد كان يعتقد أن الفلاحين هم مصدر الثروة ومنبع القوة للجيش والوطن .

وكان تيمور شخصية يحف بها الجلال وتحوطها الهيبة ، وكان يطيل المكث بين حرسه الخاص الذى كان يبلغ خمسة وستين ألفاً من الرجال الشجعان ذوى البسالة والإخلاص ، وقد كان يجزل لهم فى العطاء . . وكانت شخصية الجندى ترتفع فيه على شخصية الحاكم فقد شب على صهوة جواده ودان له الملك بحد سيفه ولذلك كان معروفاً أن تيموراً كثير التنقل وأن أكثر مكان عاش فيه هو ظهر حصانه .

إن الرجل الذى حنكته التجارب وصنعته الأحداث الهائلة ظهر على مسرح التاريخ بسيفه وعقله فبهر الأنظار واجتذب تقدير المؤرخين والمراقبين بعظيم مزاياه وجلائل أعماله ، وقد عاشت عاصمته سمرقند سنوات ذهبية تنعم بترف الانتصار وملاذ الحضارة وخيرات التجارة العالمية التى كانت تمر بها من كل حدب وصوب ، وهى البلدة المتواضعة التى تسلمها تيمور صغيرة بسيطة بيوتها من الخشب والطين ، ففتح فيها الشوارع والميادين ، وأقام المبانى وأنشأ الحدائق ، وجملها وزينها وأحسن

خلقها فصارت درة البلاد الأسيوية وكبرى مدن العالم ، وجلب لها الصناع والفنيين والكتاب والعلماء ، وشيد الدور العمومية ، والمجامع ومراكز الاستعلام ومراصد الفلك ، ولم تلهه فتوحاته وغزواته عن التقدم المدنى فحمل الرقى إلى بلاده والخير والجمال لعاصمته ، والمدنية والحضارة لشعبه والذكرى الخالدة لبطولاته وفطانته وخططه وأعماله .

ثورات وغزوات

لم تكن حياة تيمور سهلة فى أية مرحلة من مراحلها ولم يكن ميسوراً أن يستقر الأمن والسلام بعد أن امتدت أطراف امبراطوريته ولكنه كان مولعاً بالصعب معتاداً على المشقة لا تكاد الثورة تنشب هنا أو هناك حتى يطير إليها وسرعان مايقضى عليها و يشتد فى عقاب مضرميها .

فلما حدثت الشاه منصور نفسه أن يشق عصا الطاعة على تيمور و يرفع علم الثورة فى فارس و يأخذ بزمام ملكها تحرك الأعصار إلى البلاد الثائرة فلجأ الشاه إلى حصنه الحصين « القصر الأبيض » حيث أعد عدته لإقامة مديدة ودفاع لا قبل لأحد بتحطيمه ، فقد كان القصر بمثابة حصن منيع فى قلب الجبال يصعب الوصول إليه لصعوبة المرتقى وضيق المسلك وتعذر استخدام أدوات الحصار ، كما أنه كان مزوداً بالمؤن والمياه وأسباب الحياة ، مما يجعله يصمد عدة سنوات ، وكانت الحامية التى تدافع عنه شديدة البأس واسعة الخبرة بشئون الدفاع وفنون القتال .

دارت المعركة بين المهاجمين والمدافعين وأخذت قوات تيمور تدور حول القصر الحصين تختبر مسالكه وتتكشف موانعه وتتلقى

بين الحين والحين دفعات قوية من سهام المدافع يمطرونهم بها فى دقة وكثرة حتى تعرض الهجوم للاخفاق لولا دورة جديدة من دورات تيمور الموسومة بالجرأة والاندفاع ، ظهرت على أثرها ثغرة تدفقت منهـا القوات بغزارة ، فانهارت معنويات المدافعــين واضطرب نظامهم وسقطت خطتهم واستسلم القصر بمن فيـه وقبض تيمور على الشاه منصور فقتله وقضى على رؤوس الفتنة وعادت بلاد فارس إلى قبضته القوية .

وأصبح تيمور على حدود البلاد العربية !

وكانت أخباره سبقته إليها ، وأحسّ أمراؤها بالخطر الداهم ، فراحوا ينشدون الوحدة ويبحثون وسائل دفع الغزو التترى الفظيع الذى اقترب بخيله ورجله وأصبح على الأبواب ، وكان أول اتفاق أبرم بين مصر و بغداد ، واستطاع هذا المحور أن يضم إلى صفوفه الثائرين على التتار كالتركمان والقبائل التى دخلت الحدود لائذة طالبة الغوث واستعد صاحب بغداد ـ الذى كان فى وجه العاصفة ـ فجمع أمواله وكنوزه و بعث بها إلى مصر وكانت جميع هذه المحاولات والمؤامرات تبلغ تيمور عن طريقة عيونه وجواسيسه .

دخلت قوات تيمور بغــداد فلم تلق مقاومة تذكر فقد فرّ السلطان هارباً إلى مصر وترك البلاد بغير قيادة فاستسلمت واجتمع كبارها فأعربوا عن خضوعهم لعاهل التتار ، وصار يدعى له فى الجوامع .

وأرسل تيمور إلى سلطان مصر ينبئه بما وصل إلى علمه من أنباء المؤامرات وأنه من الصواب التسليم بالأمر الواقع حقناً للدماء وحتى يكون هناك أمل فى التفاهم والوفاق والسلام بين المملكتين .

عندما وصلت رسل تيمور إلى مصر تحمل إلى سلطانها رسالة العاهل التترى لم يأبه السلطان بهذا التهديد وأساء استقبال المبعوثين وأمر فضربت أعناقهم . ثم تقدمت القوات المصرية بمساعدة العرب والمماليك والتركمان والأتراك فدخلت بغداد وجعلتها تابعة لمصر .

وكان تيمور فى ذلك الوقت ينهب الطريق فى غزوة مظفرة إلى الهند . قتل مائة ألف ونهب الذخائر والكنوز التى اشتهرت بها دلهى وجلب معه الفيلة والخيرات والصناع ، وعاد من الهند عام ١٣٩٩ .. وفى رأسه فكرة غزو العالم العربى .

تقرير الموقف

كان تيمور يطرح الفكرة أمام ناظريه ويرى الموقف من عدة جهات :

(١) حالة الجو : أى الفصل المناسب للعملية .

(٢) الماء والكلأ : ليضمن تموين قواته .

(٣) الطريق المأمون : الذى يوصله إلى الغرض دون أن يتعرض لأعداء آخرين .

(٤) قوة خصومه : كيف يفرقها ويقضى على قسم بعد آخر .

وقد رأى تيمور أن خصومه هم : الترك ، والتركمان ، والعرب ، وأهل جورجيا . إذا سار إلى بغداد تعرض لهجوم الترك من ناحية ، ومصر من الناحية الأخرى .. وراح يعمل بالحكمة قبل الحربة .

كتب إلى بايزيد ـ سلطان الترك ـ يناشده الوقوف على الحياد فى حربه ضد التركمان والعرب ، ويحذره فى الوقت نفسه ، فرد عليه بايزيد بكتاب قال فيه :

« ليس من عادة الأتراك أن يتخلوا عن رجل طلب مساعدتهم »

فأرسل إليه تيمور منذراً ومهدداً ، وبينما كانت الرسائل متبادلة كانت قوات تيمور قد اجتاحت « سيواس » وقضت على

سكانها الأرمن وأبقت على المسلمين . . ثم حوَّل عنان جواده فلم يمض للقاء الترك و إنما فاجأ الحدود السورية عام ١٤٠١ .

وكتب تيمور إلى والى حلب :

« إننا وصلنا فى العام الماضى إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص من قتلة رسلنا ، ثم بلغنا موت ـ السلطان الظاهر ـ و بلغنا أمر الهند وماهم عليه من الفساد فتوجهنا إليهم وأظفرنا الله بهم ثم رجعنا إلى الكرج فأظفرنا الله بهم ، ثم بلغنا قلة أدب هذا الصبى ابن عثمان ـ يقصد السلطان بايزيد ـ فأردنا عرك أذنه فشغلنا بسيواس وغيرها من بلاده كما بلغكم ونحن نرسل الكتب إلى السلطان بمصر فلا يعود جوابها فنعلمهم أن يرسلوا قريبنا « اكلمش » الذى أسروه فإن لم يفعلوا فدماء المسلمين فى أعناقهم والسلام » .

ومثلما حدث فى مصر ، حدث فى حلب : ضربت أعناق رسل تيمور .

وأخذت حلب تستعد وتتحصن وامتلأ أهلها وحاميتها حماسة لدفع الخطر المقبل ، ومهما يكن من أمر هذه الاستعدادات فقد كان واضحاً أن معلومات أمير حلب عن تيمور كانت ناقصة وأن تقدير الموقف لم يكن صحيحاً إذ سرعان ماأطبقت القوت التترية على حلب فدمرتها وقضت على حاميتها وجعلت عاليها سافلها ، وانتهكوا حرماتها وداسوا مقدساتها .

جاء فى « كنوز الذهب » :

[أن جيش تيمور لما دخل إلى حلب نهب وأحرق وسبى وقتل وصاروا يأخذون المرأة ومعها ولدها الصغير على يدها فيقتلونه من يدها و . . . . . . فلجأ النساء عند ذلك إلى جامعها ظناً من أن هذا يقيهن من أيدى الكفرة ، وصارت المرأة تطلى وجها بطين أو بشىء حتى لاترى بشرتها من حسنها فيأتى الجندى من التتار و يغسل وجهها و . . . . ! ؟]

واستسلم ذوى الشأن فى حلب ، ومع هذا قتلهم تيمور جميعاً وأحرق المدينة بعد أن ظفر بكنوزها وذخائرها ، وأقام فيها نحو شهر وجنوده ينهبون و يخربون و يسرفون فى القتل والنهب والاعتداء . . و بنى من رءوس القتلى عشر مآذن . . و يقال إنه قضى على عشرين ألف رجل فى هذه الغزوة النكراء .

وفعل التتار بأهل حماة مافعلوا بأهل حلب من قتل وتدمير وسبى ونهب ، واستسلمت حمص بغير قتال ، وسجل تيمور على رخامة بالجامع الأموى بحماة العبارة الآتية :

[إن يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا إلى بغداد فحاورنا سلطان مصر والشام فراسلناه لتتم بيننا المودة فقتلوا رسلنا وظفرت طائفة من التركان بجماعة من رجالنا فسجنوهم فتوجهنا لاستخلاص قريبنا من أيدى مخالفينا . .]

اجتاح التتار الشام وأطبقوا على دمشق ، وكان ملكها بارحها لائذاً بالفرار إلى مصر فلما أرسل تيمور إلى نائب دمشق رسولاً قتله نائب الملك قبل أن يستمع إلى رسالته مثلما فعل نائب حلب من قبل . . وكان الثمن فادحاً . . القضاء على أعظم مدينة وأجمل عاصمة فى ذلك العهد .

ذكر ابن إياس : أنه كان بين أهل دمشق و بين جنود تيمور فى أول يوم وقعة عظيمة قتل فيها من جند تيمور ألفا إنسان فأرسل تيمور يطلب من أعيان دمشق رجلا من عقلائهم ، و يمشى بينه و بين أهل دمشق فى الصلح ، فلما أتى رسول تيمور بهذه الرسالة تشاور أهل دمشق فيمن يرسلونه إلى تيمور فوقع اختيارهم على القاضى تقى الدين بن مفلح بن الحنبلى ، لأنه كان إنساناً طلق اللسان يعرف التركية والعربية ، فأرخوه من أعلا السور ومعه خمسة أنفس من أعيان دمشق ، فغاب عند تيمور ساعة ثم رجع من عنده ، فأخبر بأن تيمور تلطف معه فى القول ، وقال له :

« هذه بلد فيها الأنبياء وقد أعتقها لهم » . . وشرح من محاسن تيمور شيئاً كثيراً ، وجعل يخذل أهل الشام عن قتاله و يرغبهم فى

طاعته ، فصار أهل البلد فرقتين ، فرقة ترى ما رآه هذا القاضى ، وفرقة ترى محاربته ، وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة القاضى ومحاربة تيمور ، ثم غلب رأى القاضى وجماعته ، فقصد أن يفتح باب النصر فمنعه من ذلك نائب القلعة وقال لهم .

- إن فعلتم أحرقت البلدة جميعها .

ولكن نائب القلعة لما رأى عين الغلب سلم إليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوما .

ثم قبض تيمور على القاضى وجماعته وأودعهم فى الحديد !

وذكر غيره : أنه لما قدم الخبر على أهل دمشق بأخذ حلب نودى فى الناس بالرحيل من ظاهرها إلى داخل المدينة والاستعداد لقتال العدو ، فأخذوا فى ذلك ثم قدم عليهم المنهزمون من حماة فعظم خوف أهلها ، وهموا بالجلاء فمنعوا من ذلك ، ونودى من سافر نهب ، فعاد إليها من كان خرج منها .

وحصنت دمشق ، ونصبت المجانيق على قلعة دمشق ونصبت المكاحل على أسوار المدينة استعداداً للقتال ، ثم نزل تيمور بجيشه فى قطنا فملأت جنوده الأرض كثرة ، وصار بين جند دمشق و بين جند تيمور موقعة لم يتمكن بها تيمور من اقتحام المدينة ، ثم هرب السلطان إلى مصر لما بلغه أن هناك مؤامرة ضده .

وكان اجتمع فى دمشق خلائق كثيرة من الحلبيين والحمويين والحمصيين وأهل القرى ممن خرج جافلاً من تيمور ، ماعدا الجند الذى فى دمشق ، ولما أصبحوا وقد فقدوا سلطانهم وأمرائهم أغلقوا أبواب دمشق ، وركبوا أسوار البلدة ونادوا بالجهاد ، فتهيأ أهل دمشق للقتال وزحف عليهم تيمور بعساكره فقاتل الدمشقيون من أعلى الأسوار أشد قتال ، وردوا التتار عن السور والخندق ، وأسروا منهم جماعة حاولوا إقتحام باب دمشق ، وأخذوا من خيولهم عدة كبيرة ، وقتلوا منهم نحو الألف ، وأدخلوا رؤوسهم إلى المدينة ، ولما أعيي تيمور أمرهم جعل يخادعهم فأرسل يريد الصلح .

وطلب تيمور أولا تسعة أصناف من المأكول والمشروب والملبوس وغيره ، وهذه هى عادته فى كل بلد يفتحها ، فأجابه الدمشقيون إلى ماطلب باقتناع القاضى كما قدمنا .

وتقرر أن يجبى تيمور من دمشق ألف ألف دينار ، وفرض المبلغ على الناس فقاموا به من غير مشقة عظيمة ، ولكن تيموراً عاد يقول أنه يطلب عشرة أضعاف هذا المبلغ . فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم . ثم فرض عليهم تيمور أن يسلموه أموال الذين انهزموا وأسلحتهم ففعلوا ذلك . ثم طلب جميع مافى دمشق من السلاح جليله وحقيره فأخرجوه كله فلما فرغ من ذلك قبض على القاضى وجماعته وألزمهم أن يكتبوا

له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها ، فكتبوا ذلك ودفعوه إليه ففرقه على أمرائه وقسم البلد بينهم فساروا إليها بجنودها وحواشيهم وأخذ كل منهم مقامه فى محلة من المحلات وألزموا أهلها بإخراج كل ماعندهم ودام هذا البلاء عدة أيام ، ثم أمر تيمور رجاله بالدخول وسيوفهم مشهورة ، فنهبوا ماقدروا عليه وساقوا الأولاد والرجال وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها ؛ وساقوا الجميع مربوطين فى الحبال ثم طرحوا النار فى المنازل والدور والمساجد وكان يوماً عاصف الريح فعم الحريق البلد حتى صار لهيب النار يناطح السحاب .

وعملت النار فى البلد ثلاثة أيام بلياليها ، ثم رحل تيمور عنها بعد أن قام ثمانين يوماً ، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بنى أمية من الحريق ، وزالت أبوابه ؛ وتفطر رخامه ولم يبق غير جورة قائمة ، وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت أطلالاً بالية ورسوماً خالية ولم يبق فيها غير الأطفال .

وفوق ذلك كله ومع مامنيت به دمشق من قتل سكانها ، وإحراق مصانعها و بيوتها . واستخراج أموالها وطرائفها ، أصابتها من تيمورلنك مصيبة لا تقل عن تلك ، أصابت منها الصميم فلم تبق ولم تذر .

قال ابن عربشاه فى تفصيل هذا الهول [وبينما كان رجال تيمور يحاصرون قلعة دمشق ، أخذ هو يتطلب الأفاضل وأصحاب الحرف والصنائع ، وأرباب الفضل ، واستمر نهب عسكر تيمور لدمشق ثلاثة أيام ، وارتحل وجيشه ، وقد أخذ من نفائس الأموال ، فوق الطاقة والإمكان ، وتحملوا عدا ذلك ما عجزت عنه قوة استطاعتهم فجعلوا يطرحون ذلك فى الدروب والمنازل ، ويلقونه شيئاً فشيئاً ، فى أوعار المراحل ، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل ، وأصبحت القفار والبرارى والجبال والصحارى من الأمتعة والأقمشة كأنها سوق أو معرض وكأن الأرض فتحت خزائنها وأظهرت من المعادن وغيرها كامنها ، وأخذ تيمور من دمشق أرباب الفضل وأهل الصنائع وكل ماهر فى فن من الفنون ، أو بارع من النساجين والخياطين والحجارين ، والنجارين ، والأقباعية ، والبياطرة ، والنقاشين ، والقواسين ، وبالجملة أهل كل فن وصناعة . ولم يترك الفقهاء ، والعلماء ، والأفاضل ، وحافظ القرآن ، والعبيد ، والنساء ، والصبيان بما لا يسعه الضبط والوصف] .

وجاء فى الضوء اللامع : أن تيمور كان يسلك الجد مع القريب والبعيد ، ولا يحب المزاح ، ويلعب الشطرنج وله فيه يد طولى ومهارة فائقة حتى أنه زاد فيه جملا وبغلا ، بحيث لم يكن يلاعبه فيه إلا أفراد ..

وكان ذا رأى صائب ، ومكائد فى الحروب عجيبة وفراسة قل

أن تخطىء ، عارفاً بالتواريخ لإدمانه على سماعها لا يخلو مجلسه من قراءة
شيء منها سفراً وحضراً ، مغرماً بمن حوله معرفة بصناعة ماإذا كان
بارعاً فيها ، حاذقاً باللغة الفارسية ، والتركية ، والمغلية الخاصة ، و يعتمد
قواعد جنكيز خان أصلا .

رحل تيمور عن دمشق ، وقد أصبحت أطلالا لا مال فيها ولا رجال ، ولا مساكن ، ولا حيوان ، صار من بقى فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون ويترافقون ويخرجون من دمشق إلى الديار المصرية فيخرج عليهم العربان والعشير وينهبون . فجرى من العربان والعشيرة ما لم يجر عليهم من جنود تيمور ، فذهبت حرمة المملكة ، وعزم السلطان الناصر على العودة إلى دمشق ، ثم بلغه أن تيمور رحل عنها وهو مريض فعدل عن حملته ، وأرسل تيمور إلى صاحب مصر (سودون) نقيب قلعة دمشق يعتذر له مما قد جرى ويطلب قريبه الذى كان أسر فى أيام الملك الظاهر برقوق ، وأنه إذا أطلقه يطلق ماعنده من الأسرى ، فأطلقه وكساه وأحسن إليه ، فلما وصل جماعة السلطان ومعهم قريب تيمور إلى معسكره ، وأكرمهم واعتذر مما وقع منه ، وقال : هذا كان مقدراً . . .

وقد رحل تيمور عن دمشق ولم يتعدها إلى فلسطين ، فسلمت سورية الجنوبية من شره . . .

وكانت أكثر المدن الصغرى فى أواسط سوريا قد خضعت له بحكم الطبيعة ومنها طرابلس وقد أحضر له منها مال ، واجتاح بعلبك

ونهبها ، ولما وصـل إلى حلب حرقها مرة ثانية ، وهدم أبراج القلعة وأسوار المدينة والمساجد والجوامع والمدارس وقتل أمراء كل من وجدهم فى طريقه وأخذ من كان فى قلعة حلب من المعتقلين وترك بعضهم ، والواقع أن تخريبات تيمور فى البلاد السورية ، لا يتأتى وقوع مثلها فى عشرات الأعوام ، عملها بجيشه الجرار فى عشرات من الأيام .

قال تيمور : إن مافعله كان مقدراً ، فـكأنه شعر بعظم تبعته على عادة الفاتحين والسفاكين ، بيد أنه كان مغرى بغزو البلاد الإسلامية كما يظهر لأنه لم يترك قطراً إسلامياً إلا تناوله بالبلاء والمحق حتى أنه كان يريد غزو أفريقية كما فتح آسيا ، يقـال : إنه لما اجتمع بابن خلدون المؤرخ المغربى المشهور سأله :

أين بلدك ؟ .

فقال ابن خلدون : ـ بالمغرب الجوانى .

فقال : ـ وما معنى الجوانى فى وصف المغرب ؟ .

فقال : هو فى العرف معناه الداخلى أى الأبعد .

فقال له تيمور : أريد أن تـكتب لى بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجبالها وأنهارها وقراها وأمصارها .

فـكتب له ابن خلدون ماطلب ، فدفعه تيمور إلى أحد رجاله لترجمته إلى اللسان المغلى ، ثم هرب ابن خلدون إلى مصر ناجياً بنفسه مخافة أن يأخذه معه إلى بلاده .

نقطة سوداء فى جبين الفاتح التترى أضاعت سمعته كجندى وشوهت تاريخه كبطل ، فهو لم يعرف فى حربه حدود الحرب ، ولم يرع تقاليد القتال ، وإنما كانت خطته القتل والتدمير والخراب ، لم يحارب الجنود فحسب ، وإنما أجرى سيفه على النساء والأطفال ولم يدمر المواقع وحدها ولكن دمر المدن وهدم البيوت وأشاع الفوضى والخراب . . .

لم يعتمد على البراعة الحربية وإنما أدار القتال بروح السفاكين الهمج وترك كل خطة حربية مفتوحة بعد النصر ليتيح لرجاله ما كانوا عليه من إجرام وفسق وسلب ونهب .

الذين دافعوا عن تيمور قالوا : إنه مد فى حبال الوحشية ليخيف خصومه ، وقضى بالتنكيل والعذاب لأعدائه حتى يعلم مصيره كل من تحدثه نفسه بقتاله أو الخروج عليه ولكن الجندية الحقة تبرأ من أفعال تيمور وقومه التتار ، وستظل النقطة السوداء فى تاريخه وتاريخهم تعمهم وتحط من شأنهم ، فالقوة وحدها ـ بغير الحق ، والنظام ـ مآلها الزوال . . . ولهذا دالت دولة التتار عقب موت عاهلهم تيمور . . . ولم يعد يذكر سوى وحشية تيمور وهمجيته .

وقد ساعد تيمور على إحراز النصر وتقويض العروش وتدمير

الشعوب أن خصومه كانوا غير منظمين ، فلو قدر للبلاد العربية الإتحاد والتضامن لوقفت فى وجه الطاغية وردته على أعقابه مهما كانت قوته وشدته . إن الذى فتح الباب على مصراعيه للتتار هو عدم الاتحـاد ، ولهذا صرع التتار خصومهم دولة بعد دولة . . .

لم يكن فى مصر أو الشام رجل قوى بعيد النظر يستطيع أن يدفع هذه البلاد إلى الاتحاد فى مواجهة الخطر ، وأن يعد جيشاً قوياً موحداً يضم إليه فلول الثائرين والهاربين والناقمين ، ويوطد صلاته بالأتراك فتكون ثمة خطة واحدة تضغط على قوات التتار من أكثر من ناحية فتصمد لها وتودى بها وتقضى عليها .

لقد كان معروفاً أن التتار لا يتركون بلاداً تنعم بالسـلم وتزدهر بالخيرات حتى تهبط عليهـا جحافلهم تقتل وتسبى وتدمر وتخرب . . فـكيف قابل المسلمون فى الشـام ومصر وتركيا هذا الخطر ! . . كان بايزيد ملك الترك معتزاً بسطوته وقوة جيشـه ، وإنه وحده كفيل بالقضاء على التتار فلم يتحرك حين دهم التتار دمشق وبغداد ، وظل ملتزماً حلمه حتى هزمت دمشق ثم بغداد ، وأخيراً دارت عليه الدائرة .

أما صاحب بغداد ـ السلطان أحمد ـ فـكان قد فـكر فى الخطر المرتقب ، وكانت خطته أن يبـارح بغداد مع صفوة جيشه إلى حيث يلتقى بالجيش التركى وينضم إليه فى قتال التتـار . . . كانت

الخطة متأخرة ، وعرف تيمور بها . فقد كانت مخابراته واسعة الحيلة وجواسيسه تعمل فى كل مكان ، وتأتيه بأدق الأخبار ، و بتفاصيل الخطط .

غادر تيمور البلاد السورية إلى ضفاف الفرات سنة ١٤٠١ ، وأراد أن يعمل بسرعة فقد كان عليه أن يقضى على بغداد فى أيام قليلة ليحول وجهته إلى الترك الذين كانوا يستعدون لمحاربته .

بعث تيمور إلى نائب حاكم بغداد يخيره بين التسليم ، أو التدمير . فرفض التسليم ، ونادى على قومه بالجهاد ، واحتمى خلف الحصون والأسوار فضيع على التتار فرصة الغزو بلا حرب ، والفتح بلا مشقة وخاصة وأن تيمور كان يتطلب انتصاراً عاجلاً ، وغزواً سهلاً بعد عناء المسير عدة أميال . . وذلك فى الوقت الذى كانت كثرة من جيوشه تتأهب فى تبريز لمعركة ضد الترك .

وفكر تيمور فى ترك بغداد إلا أن موقعها أغراه ، ومركزها الأدبى شده إليها ، فقد كانت مفتاح الموقف فى الشرق العربى ، والحصن الأخير الذى يعتد به ، فأراد أن يجعل منها الضربة قبل النهائية التى يدوى صداها عند الترك فتحدث الأثر المعنوى المنشود .

وأخذ التتار يعدون العدة لحصار بغداد واقتحامها فأرسل تيمور إلى ابنه (شاه روك) أن يأتى إليه فى عشرة فرق ، ومعه أدوات الحصار ،

وأرسل إلى ابنه سليمان أن يأتى إليه ببعض الفرق من سمرقند . . وذلك لمواجهة معركتين فاصلتين حان موعدهما .

ولما جاء (شاه روك) بجنده أمر رجاله ، وكان عددهم يبلغ المائة ألف نسمة بالمظاهرة حول أسوار المدينة لعل فى هذه المظاهرة ما يحمل سكان بغداد على طلب الصلح والتسليم ، ولكن شيئاً من هذا لم يقع ، وظل سكان بغداد يعتصمون بأسوارهم ، فأغضب ذلك تيموراً ، وراح ينصرف إلى محاصرة المدينة بشدة وقوة وحمق .

ونصبت آلات الحصار ، وأخذت الحجارة تندفع نحو الأسوار فتهدم بعضها حيناً ، وترتد مدحورة حيناً آخر ، حتى تمكن التتار من فتح ثغرة فى جانب من السور ، ولكنهم وجدوا أن البغداديين أقاموا وراء السور الخارجى سوراً آخر ، وقد أخذوا مكانهم فى أعلاه ، يدفعون عن مدينتهم عادية الغزاة ، ويرمونهم بالحجارة والأقواس .

وكان الحر شديداً لاهباً لا يستطيع المرء معه أن يقضى فى الشمس المحرقة برهة من الزمن ، حتى لقد كانت الطيور تسقط من الجو لاحراك بها ، وكان يضطر التتار أنفسهم ما بين حاشيتى النهار إلى الاختباء فى الظل ، لا يظهرون للعيان إلا فى أول النهار وآخره .

ولكن تيموراً لم يضرب ضربته القاضية إلا فى رابعة النهار ، وفى

منتصفه ، وهو الوقت الذى ينصرف فيه البغداديون عادة للراحة ظناً منهم أن أحداً لن يهاجمهم فى مثل هذه الساعة المحرقة ، وبذلك تمكن تيمور من اقتحام أحد جانبي السور ، وعندئذ أمر رجاله كلهم بالهجوم ، وكانت ساعة يشيب من هولها الأطفال ، فأصبحت دار السلام دار الدم والضنك والقتل والسلب والنهب ، وأما القتلى فليس يعدهم حاسب ، ولا يستطاع لهم حصر ، ولقد أخبر مؤرخو تيمور نفسه أنهم يبلغون تسعين ألف نسمة ، وأن مئة وعشرين سارية من رؤوس القتلى نصبت فى الأرض الفضاء . .

أما الأسوار فقد دمرت ، وكذلك المنازل أحرقت ، ولم يترك تيمور فى بغداد غير بعض المساجد ، وكذلك كانت نهاية بغداد عاصمة العباسيين ، ومفخرة البلاد العربية فى ذلك الحين .

ولئن أعيدت عمارة بغداد بعد ذلك العهد إلا أنها أضاعت مكانتها السابقة العالمية التى كانت تتمتع بها ، وتفخر بها على المدن والعواصم وأصبحت مدينة عادية لا شأن لها فى سياسة العالم العربى ، ولم يكتف تيمور بإحراق المدينة والفتك بسكانها بل راح يبعث بخبر سقوط عاصمة العباسيين إلى جميع المدن والحواضر فى مملكته ، وإلى بايزيد ملك العثمانيين أيضاً .

سقطت بغداد ، وقضى التتار على كل عرق فيها ينبض بالحياة ،

وبارحها تيمور ومعه كنوزها وخيراتها ، ولوى عنان جواده إلى تبريز لمحاربة الترك . وبذلك نجت مصر من شره ، وانتهت معاركه فى البلاد العربية . . وكانت بغداد خاتمة الأهوال .

ولم يقف المؤرخون طويلاً عند الحديث عن هذه المعارك ، فلم يكن للفن الحربى نصيباً من العناية ، وإنما كان إجماع المراجع وصفاً إجمالياً مليئاً بالدعاوة مشحوناً بالحديث عن فظاعة التتار ، واندفاعهم الخطير إلى القتل والتدمير والسلب والنهب ، ولهذا يصعب على دراسى التاريخ العسكرى التحقق من التفاصيل والوصول إلى خطط الفريقين والوقوف على التقدير الصحيح للمواقف المختلفة . غير أن البحث فى شتى المراجع الملمين بمبادىء الحرب ينتهى بعدة نتائج حاسمة كلها تدل على ما كان يتمتع به تيمورلنك من موهبة حربية فذة ، ومبادىء ونظم استنها لنفسه وطبقها فى معاركه فكان له النصر دائماً فى كل حرب خاضها ، وفى أية معركة أدار رحاها .

ومن أهم المبادىء التى جرى عليها تيمورلنك :

(١) المعلومات : سبق تيمورلنك أهـل عصره فى استخـدام الجاسوسية والطابور الخامس ، ولعله جرى فى ذلك مجرى جنكيز خان ، فكلاهما كانت له مقدرة فذة فى استخدام عناصر الاستطلاع والجاسوسية ، وحقق بذلك قدراً وفيراً من المعلومات الوفيرة التى كشفت .

(٢) الحشد: كانت قوات التتار أكثر من الخصوم فى أية معركة، وكان تيمور لنك يعتمد فى سرعة إنهاء المعركة على جيوش جرارة تربو على عدد خصومه فكان له التفوق العددى فى ساعة المعركة الحاسمة.

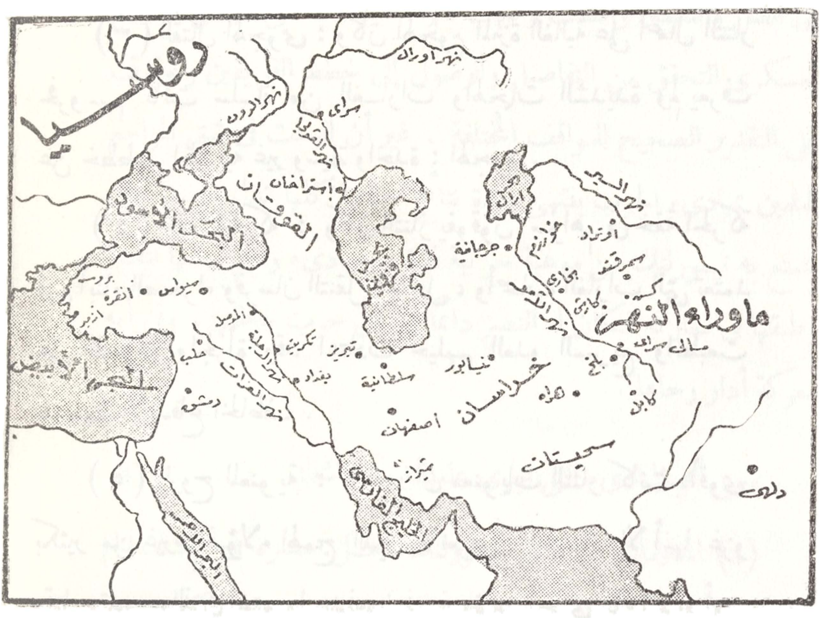
وكان يسير على تعبئة كاملة واستعداد تام لأى طارىء فى القتال المرتقب.

(٣) القتال الهجومى: وكان الهجوم الميزة الغالبة على أعمال التتار لحروبهم كانت سلسلة من الغارات والهجمات الشديدة ولم يعرف عن خططهم الحربية غير وسيلة واحدة: الهجوم.

(٤) خفة الحركة: وكان التتار يفوقون سواهم فى خفة الحركة فهم أبناء الصحراء وفرسان التنقل العاجل، وأصحاب الغارات التى تعتمد على السرعة والجرأة وقد اعتادت خيلهم العدو السريع وانطبعت نفوسهم بالاندفاع الخاطف.

(٥) الروح المعنوية: لاغرو أن معنويات التتار كانت أقوى بكثير من غيرهم فهؤلاء الهمج الذين لايعرفون الحياة إلا أنها غزو وقتل وتدمير والذين استمروا يندفعون فى غزوة بعد أخرى كانوا لايعبأون بالمشقة ولا يعرفون للهزيمة معنى.. فليس هناك مايخشون عليه من الخسران.

(٦) النصر بالرعب : كانت أخبار التتار تفتح لهم أبواب المدن قبل وصول الجيوش وتهزم روح العدو قبل اللقاء . ولهذا كان تيمورلنك يتعمد أن تذاع أخبار فتوحه وما جرى لخصومه من مصائب وويلات حتى تهتز لهذه الأنباء قلوب الملوك والأمراء . فإذا همّ التتار بمهاجمتهم عرفوا سلفاً ما سوف يحل بهم ، وبذلك تكون الهزيمة المعنوية فاتحة الهزيمة المادية .



مملكة تيمورلنك

أسباب تفوق تيمورلنك

وبهذا يمكن تلخيص أسباب انتصـارات تيمورلنك إلى العوامل الآتية :

(١) التفوق العددى .

(٢) المعلومات .

(٣) الروح الهجومية .

(٤) الروح المعنوية .

(٥) الدعاية .

(٦) كفاية الناحية الإدارية .

وليس بوسع قائد عالمى حديث أن يجىء بأكثر مما جاء به تيمورلنك . . الذى سبق بخمسمائة سنة !

والفضل للمتقدم ، كما يقولون .

تيمور . . . والصاعقة

أما تيمور ، فقد عرفنا عنه الكثير .

وأما الصاعقة ، فهو بايزيد الأول ملك الترك الذى اشتهر باتساع ملكه وقوة جيشه ، وشدة بأسه ورسوخ قدمه فى أمور الحرب والحكم.

كان بايزيد أقوى حكام زمانه ، وقد استطاع أن يصد الصليبيين الذين أقبلت جحافلهم من كافة أنحاء أوربا تحت إمرة ملكة المجر « سيجزمند » فهزمهم شر هزيمة وردهم على أعقابهم إلى غير رجعة سنة ١٣٩٦ .

وقد شهدت تلك الفترة من التاريخ قائدين طموحين : تيمور و بايزيد ، كل منهما ينشد الغلبة والنفوذ ، فصال وجال وقهر الخصوم ، وغزا الأمصار ، كل منهما كان جندياً مغواراً خاض المعارك وعرف النصر . . . ثم أصبحا متجاورين ! ولم يعد العالم يتسع لهما معا . ! ؟

كان تيمور قد غزا بلاد ماوراء النهر وغنم دولة جنكيزخان وفتح الهند وفارس وقضى على دمشق وبغداد ، و بلغ الحدود التركية . . بينما كان بايزيد متربعاً على عرش عظيم يسيطر على آسيا الصغرى والبلقان و يرنو ببصره إلى غزو أوربا ، وقد فتح شهيته

إنتصاره على الصليبيين فأزمع الاستيلاء على القسطنطينية وضرب حولها الحصار ، وأوشك على أن يظفر بها لولا أن جاءته الأنباء بأن تيمورلنك يقترب من الأراضى التركية ويقتحم « سيواس » . . . فاضطر بايزيد إلى رفع الحصار عن القسطنطينية ، بعد أن أخذ عهداً على ملكها أن يسلمها إليه بعد أن يتم له القضاء على التتار ، ثم نقل جنده إلى آسيا لصد الغارة التترية .

وبدأت المعركة التاريخية الحاسمة . . فى ناحية كان التتار الذين عرف القارىء إندفاعهم المروع فى القتال والقتل والسلب والنهب ، وعلى رأسهم قاهر العالم تيمور يهبط بهم فى المعركة فيروع خصومه ويقضى فيهم القضاء المبرم ويدخل المدينة فيجعل عاليها سافلها ويحولها إلى مقبرة كبيرة موحشة . . . وفى الناحية الأخرى جيش جبار عرك الحروب على ثرى آسيا وأوربا ، ويتضمن حشوداً من الأناضول واليونان والعرب ، وقد برعوا فى شتى أنواع القتال ، وتزيوا بالدروع والأغطية والقلانس ، وعلى رأسهم قائد يعتبر نفسه ملك زمانه ، وقد أعد جيشه خير إعداد وزودهم بالسلاح والعتاد فاستخدموا الدروع تغطى كل الجسم وكان ينطبق عليهم قول المتنبى فى الروم :

أتوك يجرون الحديد كأنما   سروا بجياد مالهن قوائم

فلم يكن يظهر للناظر إليهم غير عيونهم ، وقد قدر المؤرخون عدد الجيش بمئة وخمسين ألفاً من جميع الأمم التى كان يحكمها سلطان الترك فى ذلك العهد .

وقد تعود هذا الجيش النصر فى كل غزواته وفتوحاته ، فكان أفراده والحالة هذه على ثقة من أنفسهم ، وقد اعتزموا على التضحية فى سبيل سلطانهم الذى كان يرتصد الحوادث وهو هادىء النفس ثابت الجنان .

كان تيمور يتقدم إليهم . . وهو أمر كان يسر بايزيد ، لأن جلة جنده من المشاة ، وهؤلاء كانوا فى أحسن حال حين يدافعون وهم فى أرضهم ، فما عرفوا الإنكسار أبداً ، خصوصاً وأن الأرض الوعرة فى آسيا الصغرى كانت توافقهم ، وكانوا يعرفونها كل المعرفة بخلاف التتار الذين كانوا يتقدمون فى أرض يجهلونها ، ولا يعرفون مفاوزها وسبلها .

وكان هناك فى القرب من سيواس طريق واحد ، فاعتزم بايزيد أن يأخذ مكانه ، وينظم معسكره ، ويدخل فى خطته هذا الطريق نفسه ، لأنه كان يعتقد أن جنود تيمور سوف تستخدمه حتما ، ولا سبيل لتقدمها غيره .

وتقدم بايزيد الهوينا نحو الشرق حتى وصل إلى ضواحى أنقرة فحط رحاله ونصب خيامه ، وأمر جنده بالنزول والاستراحة فترة ،

ثم تقدم منها إلى ضفة النهر فأخبرته عيونه أن تيمور قرب سيواس . فاتخذ جيشه مكاناً يبعد عن محل تيمور بمقدار مسيرة يومين للراجل وأخذ ينتظر خصمه .

انتظر أياماً ثم أسبوعاً . . . ثم حملت له عيونه بعض سكان سيواس ، فإذا التتار ليسوا فيها و إنما فيها جماعة صغيرة منهم . وأما جيش تيمور فليس يعلم أحد مكانه ، ولكنهم يعلمون أنه ذهب لمحاربة الأتراك !؟

وأسقط فى يد بايزيد ، لأن تيمور لم يكن فى الطريق الواقعة بينه و بين سيواس ، والتى أخذ ينتظر خصمه فيها . . . . ثم أن طلائعه التى ذهبت شمالا وشرقا وغربا ، جاءت تقول إنهم لم يعثروا على جيش تيمور الذى اختفى .. فلا يعد يعرف أحد أثره !

وكان هذا الموقف غريباً لدى الأتراك ، فقد كانوا اتخذوا أهبتهم للحرب منتظرين خصمهم فى أرض وعرة المسالك صعبة السبيل ، ثم إن عدم معرفتهم بمكان خصمهم ليس من الحكمة العسكرية فى شىء ، وقد يقع ما ليس فى الحسبان ، ومع ذلك فقد رأى بايزيد أن يقبع مكانه وأن لا يحرك ساكناً حتى يعرف مواقع خصمه !

ولم يطل ذلك كثيراً فقد هجمت بعض طلائع تيمور على الجناح الأيمن وتمكنت من أخذ بعض الأسرى ، فترك بايزيد

مكانه وأسرع إلى حيث وقع الهجوم ثم بعث طلائع تتعرف على محل تيمور ، فإذا به قد اختفى ثانية ، فأرسل عندئذ ابنه سليمان مع فرقتين من الجيش ، فرجع هذا يقول إن تيمور قد مشى بجيشه نحو أنقرة ، وعندئذ أخذ بايزيد يعود بجيشه إلى المكان الذى كان قد تركه قبلا .. و بدأ يشعر بالكارثة !

والواقع أن خطة تيمور كانت بسيطة جداً فإنه حين رأى الأرض التركية ودرس طبيعتها وعرف صعوبتها وجد أنه يصعب على فرسانه المحاربة فيها ، وأنه والحالة هذه لن يوفق فى معركة مع بايزيد إذا كان هذا قد أخذ لنفسه وجنده مكاناً ملائماً ، فراح عندئذ يحاول جذب خصمه إليه ، وسار بجنوده على ضفاف النهر بالقرب من أنقرة حيث المرعى حسن والكلأ كثير ، ثم أرسل بعض طلائعه للاصطدام مع جناح بايزيد الأيمن ، فلما قامت بعملها انطلقت مسرعة إلى مكانها الأصلى .

وقد ورد فى بعض المراجع القديمة أن تيمور كان يقول لرجاله فى هذه المرحلة من القتال :

« بميسورنا أن نفعل أحد أمرين : إما أن نقيم هنا ننتظر هجوم الترك علينا ، أو نتقدم إلى بلادهم فنحرقها ونهدمها ونحملهم على الجرى خلفه ، ولما كان أكثر جند بايزيد من المشاة فإن المشى يضرهم ويتعبهم » !

وبعد أن سكت برهة قال :

— « وهذا الرأى الأخير أصلح الآراء وهو ماسنفعله . »

وهكذا كان تيمور يقـدر الموقف ، ويستعرض الحـلول فى « مجلس حرب »

تقدم تيمور بجيشه بعد أن بث طلائعه وأخذ أهبته حتى وصل إلى ضواحى أنقرة ، فأمر بمحاصرتها ، وأخذ يراقب بنفسه الأرض التى كان بايزيد قد أخذ مراكزه فيها ، ثم أمر رجاله بردم عين الماء الوحيدة التى كانت فى هذه الجهة وبوضع السم فيها ؟! ولـكنه قبل أن يبدأ بحصار أنقرة أخبرته طلائعه أن الترك يتقدمون نحوه وأنهم لايبعدون عنه أكثر من إحدى عشر ميلا . فترك أنقرة جانباً واتخذ لنفسه مكاناً موافقاً ، وأمر جنده بإشعال النيران وحراسة المـكان .

وأما الأتراك فلم يظهروا إلا فى صباح اليوم التالى ، وقد كانوا ينهبون الأرض مدة أسبوع كامل ، حتى لحقوا بعدوهم وقد قل معهم الماء ، وأحرق التتار العشب فى طريقهم ، فوصلوا والحالة هذه وقد تملـكهم التعب ، وأضناهم بعد الشقة ، وأثر فيهم العطش وقلة الغذاء .

وكان النهر خلف جيوش تيمور فلم يكن أمام الترك من سبيل إلا الهجوم على خصومهم وإزاحتهم عن طريقهم .

وقد وجـد بايزيد نفسه يحارب خصومه فى موقف يعرف معه أنه لن يبلغ النصر الذى يريده ، وعرف أيضاً أن التتار قد سخروا

به ، وحملوه على هذا الجرى السريع ليصل إليهم وجيشه خائر القوى مضطرب النفس شديد الضعف ، وكان يعلم أن هجومه سيكون بواسطة فرسانه ، وفرسان التتار أشد منهم بأساً وأكثر عدداً ، فلا بد لهم والحالة هذه من الإنتصار عليهم ، ولكن ما العمل والظروف قد أجبرته على هذا الموقف ، ولم يكن بايزيد بالجبان ، فرغم أنه وجد نفسه فى مركز حرج فقد قرر أن يحارب خصمه بكل قوته .. إلى النهاية !

ولم يتحرك تيمور للمعركة إلا فى الساعة الأخيرة ، فقد كانت المعركة بيد قواده وأولاده يسيرونها وفاقاً للأوامر التى أعطاهم إياها ، وكان حفيده الأمير محمد يقود جيش سمرقند وقد أخذ مكانه فى وسط الجيش وتفرق بقية الأمراء والقواد بين الميمنة والميسرة ، كما وضعوا الفيلة التى جلبها تيمور معه من الهند فى مكان خاص ظاهر ليكون لها التأثير المعنوى المطلوب فى قلوب العدو .

وكان هجوم الفرسان بقيادة الأمير سليمان بن بايزيد ولكنه لم يوفق ، واتخذت المعركة عندئذ صورة هائلة فقد اندفعت جموع التتار بقيادة الأمير محمد والتى كانت قد أخذت مكانها فى الجناح الأيمن . فاخترقت ما أمامها ، واضطربت صفوف الترك لهذه الصدمة وظهرت الهزيمة عليها ، وكان فى جيش بايزيد جماعة من التتار ، فلما اشتدت المعركة تركوه وانضموا إلى تيمور وأخذوا يحاربون تحت لوائه .

وحمى الوطيس ، وتمكنت فرسان تيمور من الترك واخترقت الجبهة مما اضطر بايزيد إلى أن يأمر بالهجوم العام ولكن هذا لم يفده أبداً ، فقد كان الوهن نفذ فى جيشه فلم يستطع ثباتاً أمام جموع التتار ، وأراد بايزيد النجاة بنفسه فلم يوفق وأخذ أسيراً وحمل إلى خيمة تيمور وكان فى ذلك نهاية المعركة التاريخية الكبرى .

يقول الرواة : إن بايزيد لما حمل إلى خيمة تيمور كان هذا يلعب الشطرنج مع « شاه روك » فلما رآه مقبلا ظهرت الابتسامة على وجهه . فقال له السلطان :

ـ ليس من الخلق أن تبتسم أمام شخص قدر الله عليه هذا .

فأجابه تيمور :

ـ إنى أضحك لأن الله قد أعطى ملك العالم لرجل أعور مثلك ..

ثم قال بعد برهة :

ـ على أنى أعرف ما كان يؤول إليه مصيرى ومصير رجالى لو تمت الغلبة لك !

فلم يجبه بايزيد على كلامه هذا ، ثم أمر تيمور بفك قيوده وأجلسه إلى جانبه ، فطلب السلطان من تيمور أن يبحثوا عن أولاده فجاؤوه بموسى فقط ، لأن بقية أولاده كانوا قد تمكنوا من الهرب والنجاة .

ولما احتل الأمير نور الدين (بروسة) عاصمة العثمانيين حمل إلى

تيمور كل مافيها من التحف والجوارى وما فى حرم السلطان من نساء وسرارى وخدم وحشم ، وعاد الجيش وقد حمل كل فرد من أفراده نصيبه من الغنيمة ، وفى مساء اليوم نفسه أقيمت حفلة عظيمة فى معسكر تيمور كما هى العادة المتبعة بعد كل انتصار ، وأجبر تيمور السلطان على حضورها .

ولقد كان هذا أكثر مايستطيع أن يتحمله ملك غلب أمره كبايزيد ، وقد كان فى سابقات الأعوام لايعرف جيشه إلا الانتصارات ولا يمشى قواده إلا من فتح ومن نصر إلى مثله . . .

والواقع أن تيموراً كان يفكر فى هذه الحفلة بالكتاب الذى بعثه إلى بايزيد ـ قبل تقدمه لفتح البلاد العربية ـ يرجوه فيه أن يترك صاحب بغداد ويوسف التركمانى وشأنهما ، وكيف أجابه السلطان بالتهديد والوعيد ، ولعله أراد من إحضاره إلى هذه الحفلة أن يريه بنفسه ألواناً من التحقير لم يرها قبل يومه .

على أن بايزيد لم يطل عمره كثيراً بعد أسره ، فقد توفى بعد أشهر وظلت مملكة العثمانيين بدون سلطان مدة تسع سنوات تقريباً حتى تمكن أحد أبنائه من التغلب على عوامل الشقاق ، فرجعت الدولة العثمانية بعده إلى أمجادها وعظمتها السالفة .

وبفشل الجيش التركى نجت العاصمة البيزنطية من السقوط

وامتد أجلها سنوات أخرى ، حتى تمكن السلطان سليم العثمانى من فتحها واقتحامها ونقل عاصمته إليها .

ولابد من الإشارة ما كان لفتوحات تيمور من مصاير عظيمة فى تطور التاريخ الأوربى ، فلولا ما أصيب به الترك من فشل فى معركة أنقرة ، ومن تضعضع وتبلبل وانقسام بعد ذلك ، حتى أنهم ظلوا تسع سنوات دون ماسلطان .. لكانت فتوحاتهم امتدت فى أوربا إلى مدى بعيد . ولكان بايزيد قد دخل القسطنطينية وفتحها قبل تاريخ فتحها بخمسين سنة ، ولاتجه التاريخ المعاصر ، والمتوسط إلى ناحية غير الناحية التى يتجه إليها الآن .

على أبواب أوروبا

كان انكسار الترك عظيما بحيث تمت لتيمور الغلبة فى معركة واحدة ، فسلمت له أنقرة وسقطت «بروسة» وغيرها من المدن التركية ، وهرب الترك من الأمراء والباشوات والجند إلى أوربا ، وحاول التتار أن يتأثروهم بفرسانهم وأن يقضوا عليهم فلم يوفقوا لأن السفن اليونانية والجنوية راحت تساعد الترك على الانتقال من الضفة الآسيوية إلى الأوربية ، وحفظت بذلك لهم خط الرجعة ، وقد راح بعض المؤرخين يعجب من مساعدة اليونانيين البيزنطيين للترك فى حربهم وهم خصومهم وأعداؤهم ، ولعل سبب ذلك رغبة هؤلاء فى مسالمة كل قوى ، أو لعل الترك استمالوهم ببعض المال ، فوضعوا سفنهم تحت تصرفهم ، ولكن هذا جعل التتار ينقمون على اليونانيين ، لأنهم وعدوهم بالمساعدة إذا حاربوا الترك ، فلما أرادوا تتبع بقية الجند الترك الهارب راح هؤلاء يساعدونه ، وأبوا أن ينقلوا لتيمور جنديا واحداً من جنوده إلى الضفة الثانية ، ولم يمض شهر واحد على هذه الحوادث التى ذكرناها حتى لم يبق فى آسيا جندى تركى واحد ، فقد انتقلوا جميعهم إلى أوربا ، وكذلك لم يكن فى أوربا واحد من التتار .

إن ذكرك سابقة حدثت قبل خمسة قرون ! ؟ .

وانتهت المعركة عند هذا الحد ، ولم يستطع التتار متابعة خصومهم وانتهى سيرهم عند أزمير ، وكانت فيها حامية من نبلاء (سانت جورج) فتقدم إليها تيمور يتفحصها و يمعن النظر فى مواقعها خصوصاً وقد بلغه أن بايزيد صرف ست سنوات فى حصارها ، ثم راح يحاصر القلعة مدة أسبوعين حتى اشتدت وطأة الحصار ، فتركوا الحصن ولجأوا إلى السفن الراسية فى بحر أزمير ، واستولى التتار على الحصن ، ولكنهم غادروه والمدينة بعد أن تركوا فيها أثراً يدل على مرورهم بأن أقاموا أهرامين من رؤوس القتلى .

وأما ملوك أوربا ، فقد وقفوا فى دهشة وجزع ، إذ كانوا يعتقدون بقوة الأترك وجرأتهم ، وأنهم قوم لا يغلبون ، ثم دارت الأيام فإذا بهذا الفاتح التتارى يأتى من أقصى الأرض لمحاربة الترك فى عقر دارهم فيغلبهم و يأخذ سلطانهم أسيراً ، وتنهار مملكتهم بضربة سيف واحدة .

ولقد تقبل بعض ملوك أوربا هذه الحوادث العظيمة كأمر واقع ، فكتب هنرى الرابع ملك انجلترا يهنىء تيمور بانتصاراته ، وتذكر شارل السادس ملك فرنسا رسالتى تيمور إليه مع مطران السلطانية ، فبعث به إليه مع كتاب و بعض الهدايا .

وكان تيمور فى هذا الوقت يعمل على تنظيم الشئون ، فى مملكة الترك ينتخب لها العمال و يستقبل السفراء والوفود ، التى كانت ترد

إلى بلاطه من جميع المواطن ، وفى هذه الفترة توفى بايزيد « بالصاعقة »
وأخذ تيمور يفكر فى فتح جديد . . ولكن نزل به مصاب لم يكن
يتوقعه فإن ولده الأمير محمد توفى أثر الجراح التى أصابته فى معركة أنقرة
فأمر تيمور عندئذ جنده بالعودة إلى سمرقند .

لقد خسر تيمور أولاده الواحد بعد الآخر ، فتوفى « فاتح العالم »
ولده الأول ، ثم « عمر شيخ » وقد أظهر « ميران شاه » إنه غير كفء
لإدارة الأعمال والقيام بمهام الدولة .

وأما «شاه روك» فقد كان منذ نشأته ناعماً هادئاً لا يفكر فى شئون
الحرب وأمور السياسة ، ولذلك كان الأمير محمد مطمع تيمور ومعبود
الجيش لشجاعته وجرأته وحسن أخلاقه .

وحملت جثة الأمير الشاب الذى قتل فى ساعة النصر إلى سمرقند
تحرسه فرقته التى كان قائدها ، وقد لبست السواد عليه ، واستمع تيمور
بكاء (خان زاده) والدة الأمير محمد وعويلها ساكناً هادئاً ولكنه
لم يتمكن من أن يتمالك عواطفه عند ماأبصر حفيده الصغير ابن محمد
ينتظر قدوم والده خارج تبريز ، فأطلق عند ذلك لشجونه العنان وراح
ينفرد فى جناحه الخاص لا يكلم أحداً ولا يجلس إلى أحد .

ويعود هذا الفاتح التتارى بالفكر إلى أيامه الماضيات فيجد أن
هنالك قوة أعظم منه كانت تأخذ منه وتعطيه ... فإن أكثر الأمراء
الذين ساروا معه فى أول فتوحاته قد أصبحوا تحت الأرض ، وقد قام
مقامهم أولادهم وحفدتهم . ومن يدرى فقد يكون تيمور يفكر بنفسه

ومصيره ، وأنه لا يبعد أن يتبع من سبقه من أنصاره وأعوانه .

ولكنه كان يفكر أيضاً بامبراطور الصين المتحصن خلف جداره العظيم القوى ، وكان يرى أن ملكه ليس مستقراً مادام هذا الإمبراطور على عرشه ، ومادامت سلطة تيمور بعيدة عنه لا يعترف بها ، ولا يقبلها .

ولكنه لم يتحدث إلى قواده بما يجول فى فكره بل انصرف يدبر مهام الملك و ينظر فى شئون الدولة فى الأشهر التى قضاها فى تبريز قبل أن يعود إلى سمرقند .

ولما وصل إلى عاصمته أمر بإنشاء قبر عظيم لابنه الأمير محمد ، وكذلك أمر البنائين بإنشاء قصر جديد تكون حجارته بيضاء لامعة ، وأحس فى نفسه قوة جديدة فراح ينظر فى ماجرى فى غيابه وما قام به نوابه من الحسن والردىء ، فأمر بقطع رؤوس بعضهم وكافأ البعض الآخر من المخلصين ، وقدرهم وأعلى شأنهم .

* * *

ومضى تيمور فى سمرقند سنتين أخذ يدب الوهن فيها إلى جسمه فقد كان بلغ السبعين من عمره ، فبدأ الضعف يأخذ بصره ، والمرض ينتابه من حين لآخر ، ولكنه كان يجد الوقت لاستقبال الوفود التى تزوره فى قصره ، ومنهم وفد ملك كستيل الإسبانى ، وقد وصف كلافيو رئيس الوفد مقابلته لتيمور كما يأتى :

« ترك السفراء فى ٨ أيلول مقرهم الذى خصص لنزولهم إلى

سمرقند ـ وهذا يعنى أنهم خارج المدينة ـ فلما وصلوا إلى حدائق القصر تقدم إليهم بعض رجال الحاشية وطلبوا منهم أن يسلموا إليهم مايحملونه من الهدايا إلى تيمور ففعلوا وذهب هؤلاء بالهدايا المذكورة ليقدموها إلى تيمور نفسه بكل احترام و إجلال .

ومدخل الحدائق جميل جداً يبهج النظر ، وعلى الأبواب وقف كثير من الخدم ، وقد رأى السفراء بعض الفيلة وحولها الموكلون بالمحافظة عليها.

وكان بين السفراء مندوب تيمور نفسه إلى بلاط هنرى الثالث ملك إسبانيا ، وقد ضحك منه أصدقاؤه التتار لما أبصروه لابساً ملابس الإسبانيين أنفسهم !

ثم أخذ السفراء إلى الجناح الخاص بأبناء تيمور حيث قدموا الكتب التى يحملونها من ملوكهم إلى تيمور ، فأخذها أحد أبنائه وذهب بها إلى غرفة تيمور نفسه ، فسمح هذا بدخول السفراء إليه ومقابلته .

وكان تيمور جالساً على الأرض المفروشة بأنواع البسط الشرقية الجميلة وأمامه حوض تندفع مياهه إلى السماء بقوة عظيمة ، وملابسه من الحرير وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر والأحجار الكريمة .

وتقدم الأمير نور الدين فأخذ بيد السفراء إلى مجلس تيمور لأن تيموراً كان يريد النظر إلى وجوههم عن قرب لضعف نظره .

ولم يقدم تيمور يده للسفراء لتقبيلها لأن ذلك لم يكن من العادات

المتبعة ، و إنما راح يسألهم عن ملوكهم وخص بالذكر هنرى الثالث ملك كستيل قائلا :

ـ كيف حال ابنى الملك ، وهل هو فى صحة جيدة ؟ .

ثم نظر إلى من حوله من الأمراء والقواد وقال :

ـ هؤلاء سفراء ابنى ملك إسبانيا الذى هو أعظم ملوك عصره والذى يملك فى الشطر الثانى من الأرض .

ثم أمر بفتح الكتاب المرسل إليه من الملك قائلا :

إنه يريد قراءته والتعرف على مضمونه حالا .

ولما انتقل السفراء إلى حجرته ثانية جعل بعض رجال تيمور مقامهم دون مقام سفراء ملك الصين (قاتاى) ، فلما رأى تيمور ذلك أمر بتقديمهم على سفراء ملك الصين لأنهم يمثلون صديقه ملك الكستيل ، وأما سفراء ملك الصين فكانوا سفراء لص ردىء الأخلاق ! ؟

والواقع أن تيموراً كان كثير الصراحة فى حديثه عن ملوك زمانه ورجال عصره ، و إن كان كثير التجمل فى وعوده ، لا يحافظ عليها إلا نادراً ، وفى حديثه عن سفراء ملك الصين مايدل على رغبته الملحة فى محاربته مليكهم وغزو بلادهم ، وهو ماأقره بعد أشهر فقط من هذا الحوار .

وفاة تيمور

لقد كانت سمرقند فى نظر سفراء ملك إسبانيا موطنا جميلاً مدهشاً حقاً ، حتى ليحدثنا (كلافيو) بأنه رواح يعتقد أن فى العاصمة بعض الجن ! ينشطون فيها إلى ألوان المرح و يعملون على تزيينها وتجميلها بما لا يستطيع قلم كاتب وصفه ، والواقع أن سمرقند فى هـذا العصر ، عصر السيطرة التتارية المغولية على الشرق كانت عاصمة العالم كله . يقصدها التجار من أقصى الأرض ، وتمر القوافل منها إلى جميع أنحـاء العالم .

لقد كثرت بساتينها وزادت عمارتها زيادة مدهشة ، و بلغ عدد سكانها مئات الآلاف ، ومشى فى شوارعها أصناف الناس وأشكال المخلوقات ، وكل هذا كان من صنع تيمور وعمله ، فهو الذى أمر بإنشاء القصور ، وهو الذى أشار بالعناية بالحدائق ، فلم تقم سمرقند ، ولا استطار شأنها ، و بلغت ما بلغته من العظمة وزيادة العمران إلا برأيه و إرادته .

وطلب تيمور يوماً الأمراء والقواد المثول بين يديه فلما مثلوا خاطبهم قائلا :

« لقد فتحنا العالم كله ، ولم يبق أمامنا غير بلاد الصين ، وقد كنتم رفاقى فى كل الحروب التى قمت بها ، وتعلمون أن النصر كان دائماً فى ركابنا ، والقضاء على الوثنيين فى الصين لا يتطلب جهداً ولا كبير مشقة ، وهذا ماسنقوم به » .

ولعل تيمور كان يريد من هذه الحرب الجديدة أن يهدم السور الذى كان يقوم حول البلاد الصينية ويفصل بين بلاده و بينها .

فقد عودنا تيمور فى تاريخه أن لا يترك حصناً قائماً ولا عمارة واقفة ، ولو كانت فى أقصى الأرض ، وليس قيامها خطر عليه ولا على مصاير الحكم فى الإمبراطورية ، فكيف يسكت عن جدار يقوم على مقربة من حدوده ، ولا يبعد أن يندفع من فى داخله إلى أرضه و بلاده يبتغون فيها غزواً وسلباً ، وقد قامت مملكة تيمور على التضحية وحب قواده وجنده لشخصه كما قدمنا ، لذلك نرى أنه ما كاد تيمور يحدثهم بهذه الكلمات ، ويخبرهم بعزمه ، حتى راحوا يطلبون منه التشمير والزحف ، مع أنهم كانوا بحاجة إلى الراحة والاطمئنان و إلى ملذات الحياة بين أهليهم وعيالهم ، وليست الأسابيع القليلة التى قضوها فى سمرقند بعد رجوعهم من غزو البلاد العربية والتركية كافية لتذهب عنهم ماألم بهم من نصب الزحف ومشقات الحروب .

ولكن تيموراً وقومه كانوا رجال حرب و بطش وسفك دماء

وليس فى أفكار جماعة كهذه تعودت على هذه الحياة واطمأنت إلى مصايرها فيها وما يتوافر للفرد منها فى كل حرب من مال وثراء ، أن تسكن إلى النعيم والاطمئنان .

وكان جيش تيمور الذى زحف به على الشرق الأدنى لا يزال مقيما حول سمرقند ، فما هو إلا أن يأمر تيمور حتى يزحف الجيش ويمشى إلى الحرب جذلان فرحا .

* * *

وكان الزحف أمراً مقضياً فمشى تيمور على رأس جيش عدده مائتا ألف مقاتل نحو الصين . مقسما إلى أقسام يقود كل قسم أمير من أمراء تيمور المعدودين ، وتقدم الجيش وقد حمل معه من الذخائر والأقوات مالا يحصى عدده ، فقد ذكر فى فصل سابق نفاد الأقوات لما زحف تيمور لغزو المغول المقيمين فى روسيا — أى سيبريا وأكرانيا و بلاد الترك — وكيف قلّت المؤن ونزل بجنده مشقات كثيرة ، لذلك رأى تيمور والحالة هذه أن يأخذ أهبته ، فلا يقع فى ماوقع فيه قبلا ، فاستعد للأمر أكمل استعداد وحمل معه كل ما هو بحاجة إليه ، والذى لايكون بميسوره أن يجد منه طريقه وزحفه ، لذلك كانت قوافل الغذاء والعدد كأنها مدن متحركة تسير خلف الجيش ومعها كل حاجات الجيش من الذخيرة والأقوات .

وكان البرد شديداً والثلج ينزل مدراراً ولكن تيمور لم يكن من الرجال الذين تقف فى وجوههم حوادث الطبيعة فقد أخذ يسير بجيشه لايلوى على شيء .

هذا الزحف المتعب الجبار ، كان يعوق سير الخيل والبغال التى كانت تحمل الذخيرة والأقوات كثرة الثلج وأصبحت الأرض ناصعة البياض ، فاضطر حفظة الذخائر إلى وضع الأمتعة على الأرض ليكون بمقدور الخيل أن تمشى ومعها الذخائر ، فلاتغرز فى الأرض ولاتضطرب فى الثلوج وهذا كان يتطلب عناء وجهداً عظيما .

ولكن الجيش وصل إلى (اوترا) وهو المكان الذى قرر تيمور قضاء فصل الشتاء فيه ، ثم الزحف فى الربيع على الصين ، بيد أن تيمورا لم يعش ليرى زحف جيشه فى الربيع فقد توفى قبل تحقيق هذا الحلم .

وانتقل هذا الملك الجبار الهائل إلى العالم اللانهائى .

* * *

تقول المصادر والروايات القديمة أنه لما مرض تيمور وقبع فى غرفته فى (اوترا) كان رجاله وقواده يقفون الساعات حول غرفته وخارج قصره ، فى البرد الشديد ، والثلج يغمر أرجلهم ويسقط مدرارا على رؤوسهم .

وكانت الإمبراطورة (سارى هانم) فى القاعة الكبرى وحولها وصيفاتها ، وكانت قد جاءت من سمرقند لما علمت بمرض تيمور .

ووقف أمام غرفة تيمور الأئمة والعلماء يتلون آيات القرآن و يطلبون من الله الشفاء لمليكهم وأميرهم ، وقد ظلوا على حالتهم هذه الأسابيع يطلبون من الله الرحمة ، فلم يجدهم كل هذا نفعاً ، وظهرت أمارات الموت على تيمور وقال الطبيب لما طلبوا رأيه فى مصير الملك « إن المريض العظيم لمآبه » .

وأما تيمور فلما أحس بقرب أجله قال لرجاله وقواده :

« عليكم بالجيش فحافظوا عليه ، واعملوا على اتفاق كلمتكم ولا تخاصموا فتفشلوا ، وسيروا نحو الصين ولا تتراجعوا . .

« ولا تمزقوا أثوابكم بعد موتى ، ولا تركضوا من هنا وهناك فإن هذا يحدث الاضطراب فى الجيش » .

وضعف صوته فأصبح خافتاً ضعيفاً .

ثم أشار تيمور إلى نور الدين وشاه روك بالاقتراب منه وقال لهما :

« إنى أعين بير محمد - ابن فاتح العالم - أميرا من بعدى وخليفتى ، وليكن مقره سمرقند ، وله الحكم المطلق على الجيش وشئون الدولة ، و إنى آمركم بأن تخلصوا له كل حياتكم وأن

تساعدوه فى حكمه . وإذا لم تطيعوه إطاعة تامة فإن الاختلاف والانقسام واقع بينكم .

وأقسم الأمراء والقواد ورجال الدولة أمامه بالطاعة لخليفته ثم طلب تيمور بقية أبنائه فأخبرهم برغبته ووصيته ونصحهم بالاتفاق والتفاهم والعمل يداً واحدة .

وكان ذلك آخر حديث لتيمور مع أبنائه وقواده وما لبث أن أسلم الروح بعدها بدقائق ، فعلا بكاء رجاله ، ونحيب نسائه ، وأصوات العلماء تقول :

لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له .

النقط البارزة . . فى سيرة تيمور

يقف تيمورلنك فى التاريخ بين فريقين من المؤيدين والمعارضين ، يضعه الأولون فى الصف الأول من عظماء القادة فى جميع العصور ، بينما يضعه الآخرون فى الدرك الأسفل بين المجرمين القتلة وهاتكى الأعراض والكرامات .

ومجمل مزايا تيمور التى رفعته فى أعين مؤيديه أنه كان رجلا عصامياً صنع مجده بيده وجعل لنفسه هذه المكانة الكبرى فى التاريخ بفضل شجاعته وذكائه وبراعته فى القيادة ومواهبه التى جعلت منه حاكما لمملكة واسعة الأرجاء أحسن سياستها وأعز شأنها .

ومجمل مساوىء تيمور أنه اتخذ سبيله إلى المجد الشخصى على جثث ضحاياه وأنقاض المدن الزاهرة التى داسها بحوافر خيله ، وأنه خالف طبيعة الجندى الأصيل الذى يخوض الحرب فى معتركها وحسب ، أما تيمور فقد راح يدرك المدن ويخربها ويعتدى على حرماتها ويسلب أقواتها ويهدر كراماتها ، ثم يتسلى بصنع أهرامات من جماجم البشر . . ! ؟

شخصية متناقضة ، وتاريخ حافل بالأمجاد . . والسواد !

فذلك الشاب المملوء حماسة ووطنية ، الثائر لما وقع لعشيرته من

مهانة ، وقع فيما ثار من أجله وأخذ يصنع في العشائر الأخرى أضعاف الويلات والمصائب التي حدثت لأهله .

والقائد البارع الذي قاد جنوده السذج إلى الانتصارات الرائعة في حلبات القتال ، قد نزل عن مكانته الرفيعة كقائد عظيم لما أطلق جنوده في طرقات دمشق و بغداد يتلهون بسفك الدماء وسلب الأعراض وهتك حرمات المساجد .

والحاكم القدير الذي أدار شئون بلاده في حذق وتفوق لجعلها طريق التجارة وملتقى الحضارة قضى على بلاد أخرى كثيرة بالخراب والدمار فنزع عنها أسباب نهوضها وأعادها إلى القرون الأولى .

والمهندس الموهوب الذي جدد عاصمة بلاد فزينها وزخرفها بأبدع ماوصل إليه الفن ، وجعل فيها الميادين الفسيحة والحدائق الغناء والقصور والمساجد والمتاحف ودور الكتب ودور الملاهي والملاعب قد أفسد مكانته الهندسية بما فعله برءوس ضحاياه حين جعلها في أهرامات شامخة تشهد بفنه وتحدث بحقارة نفسه وعدم إنسانيته !

والمسلم الذي كان يقول « أنا عبد الله تيمور » والذي شيد مسجداً في سمرقند يحوي ٤٧٠ عموداً من الصخر المصقول و يزهو بما فيه من رخام وأحجار كريمة ومنبر من الذهب والفضة .. هو نفسه الذي جعل جنوده يدوسون المساجد و يرتكبون فيها المنكرات .

وبعد ، فقد يصف بعض المؤرخين تيمورلنك بأنه قائد عظيم ، ـ أو على حد قول بعضهم ـ أنه أعظم الغزاة وأكبر الفاتحين ! وقد يصفه البعض بأنه حاكم قدير استطاع أن يجعل من التتر شعباً موحداً ودولة قوية الشأن إلا أن الهمجية التى اندفع فيها تيمورلنك والفظاعة التى عامل بها الشعوب الأخرى لطخت بالأوحال والمخازى صفحته وطغت على معالم شخصيته فجعلت الخطوط الرئيسية فيها العسف والإرهاب والقتل والتدمير والابادة والفساد والهمجية .

إن الرجل الذى قيل عنه إنه قهر العالم أخفق فى قهر نفسه وأخفق فى توجيه شعبه ، فعاش حياته كئيبا وقضى على دولته أثر موته .

ومهما يكن من أمر براعته الحربية وشدة دهائه وجرأته وأخذه بمبادىء ونظريات حربية رائعة فإنه لم يكن الجندى الذى يستحق التقدير والتوقير فقد نزل بمستوى سيفه وجعله فى الحضيض .

وكان الأفضل لدارس التاريخ الحربى أن يلم بإحدى معارك تيمور فى معترك القتال فيشهد فنونه فى تقدير الموقف ووضع الخطة وتنفيذها .. وحسب ! وكان هذا كفيلا بالمجد للقائد تيمور . . أما خوض عشرات المعارك وفتح البلدان فلا يجعل للقائد قيمته مادام قد تجاوز الحدود وهبط عن مستوى الجنود ونزل إلى حضيض القتلة وقطاع الطرق وناهبى الأعراض .

فإذا ما أردنا تمجيد تيمورلنك فإننا نفعل ذلك فى حدود أعماله العسكرية أى فى نطاق العمليات الحربية فقد كان ابن بجدتها وفارس حلبتها وقد عمل بجماع المبادىء السليمة ، بمحض فطنته وألمعيته ، وكان القائد المنتصر فى كل معركة خاضها ، وكان القائد الفطن فى كل تقدير للمواقف التى واجهها ، وفى كل خطة وضعها .

ولن يغفر ذلك كله لتيمورلنك ما فعل ، فقد كان ظاهرة شاذة وشخصية على غير نظام وقياس . . . إنما القائد الحق هو الذى يعرف للقيادة حقها وتقاليدها ، ويعرف للجندية معانيها وغاياتها . . وهى تتلخص فى تحقيق السلم ، ورفع الظلم ، ورد الاعتداء عن الأهل والوطن.

ومهما يكن من أمر تيمورلنك ، وما أحصيناه له من الأمجاد الحربية ، فإنه لا يستطيع أن يقف فى وصف القادة الأطهار البواسل الذين استلوا سيوفهم لتحرير أوطانهم ، أو الدفاع عن معتقداتهم ، ولم يكونوا معذبين فى الأرض أمثال الاسكندر المقدونى الذى ترفع - وهو فى أوج الشباب وقمة النصر - عن مقابلة زوجة خصمه المقهور داريوس ملك الفرس ، والذى ترفق بخصمه المهزوم بوروس ملك الهند فسأله عما يريد وأجابه لما أراد ، فعامله معاملة الملوك .

ولم يكن مثل جورج وشنطن ، الذى دعته بلاده إلى قيادة جيشها حين ألم بها الخطر فظل قائداً للجيش الأمريكى سبع سنوات

بغير أجر حتى انتصر على أعداء بلاده ، فلم يحـارب إلا دفاعاً عن وطنه وصيانة لاستقلاله ، حتى إذاحقق الهدف خلع رداءه العسكرى وعاد يعيش فى مزرعته تحت ظلال السلم .

وماذا فعل نابليون بجانب مافعله تيمورلنك ، وقد كان نابليون عبقرية حربية قليلة النظير ، ولـكنه كان إنسـاناً تسيطر عليه شهوة المجد الشخصى ، فأضاع فى سبيل ذلك زهرة شباب أوربا ، دون أن يكون هناك مبرر ، فقد انتهت مهمة السيف عند ماحقق سلامة فرنسا واستقلالها .

حتى جنكيزخان الذى قاد الوحوش الضـارية من مجزرة إلى مجزرة ، لم يصل بمساوئه إلى ماوصل إليه الطاغية الأعرج .

وأخيراً ، ماالذى كان يقصده تيمور ؟ .

هل كان حقاً يقصـد رفع الظلم الذى نزل بعشيرته . . . فى المدينة الخضراء ؟ .

لا بأس به من غرض .

وهل كان يطلب أكثر من هـذا ؟ ، كأن يصبح التتار شعباً ودولة ؟ . . .

لا بأس . . أيضاً ، فله الحق فى ذلك .

وهل كان عليه أن يحافظ على سلامة هذا الشعب ، وكيان هذه الدولة فيصد المعتدين عليها .

وهنا أيضاً . لا تثريب عليه إذا هو فعل ، بل أن واجبه أن يصد كل اعتداء ويمحق كل محاولة للنيل من حقوق شعبه واستقلال بلاده .

وإلى هنا . . ولا نجد أهدافاً أخرى .

فلماذا إذن اتجه تيمور إلى البلاد العربية فدمر دمشق ، وبغداد ، وأسرف فى القتل والهدم ، وسفك الدماء ، وهتك الأعراض ودوس الحرمات ! ؟ .

ولماذا كان تحرشه بالترك الذين كانوا يثبتون قدم الشرق إزاء اعتداءات الغرب . . وماذا جنى من هذا النصر والطغيان ؟ .

لاشىء .

لاشىء ، ولهذا فإن كل مافعله تيمور طيلة حياته قد انتهى بانتهاء حياته ، ودالت دولة التتار لأنها قامت على الأطماع الهوجاء ، ولم تقم على دعائم الحق والنظام والعدالة والحرية .

مؤلفات البكباشي السيد فرج

القيادة والقادة العظام — أسلوب واضح البلاغة أنيق الصياغة مع قوة فى العرض وبراعة فى الأداء . . الرئيس جمال عبد الناصر .

مع العسكريين — ولست أشك في أن القراء سيحصلون منه فائدة ويستشعرون أثراً حميداً . كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم

جيشنا فى فلسطين — آية من آيات العزة القومية والتمجيد للجندية .
اللواء محمد شريف

حرب الصحراء المصرية — ملم بمقدمات هذه الحرب وأطوارها ، وقلما اتصلت بالحرب مسألة إلا كان له إلمام بطرف من أطرافها . .
الأستاذ عباس محمود العقاد

الدفاع عن الوطن . — يكشف عما تحتاجه مصر لاستكمال الدفاع عن كيانها فى عبارة صريحة دقيقة متزنة — الأهرام

القائد الجيد — يسر مدير المشاة كما يسر كبار ضباط المشاة أن يكون الفائز الأول فى مسابقة الموضوعات العسكرية : الصاغ السيد فرج « كتاب إدارة المشاة فى ١٩٥٣/٧/٤ » .

و

فى شمال أفريقيا

الهجوم على أوروبا

العالم بعد الهدنة

حروب محمد على

هذه هى الحرب

أحاديث فى الحرب

أبطال العالم فى الملاكمة

الرياضة فى بلادنا